دِلالَةُ السِّيَاقِ

بَيْنَ عَبْدِ القَاهِرِ الجُرْجَانِيّ وسَابِقِيه

دكتور

أُسَامَةُ عَبْد العَزِيز جَابَ الله

أستاذ البلاغة والنقد الأدبيّ المساعد

كلية الآداب – جامعة كفر الشيخ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ربّ العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، هو الأوّل الآخر ، والظاهر الباطن ، له الملك وله الحمد ، وهو على كلّ شيء قدير .

والصلاة التّامة الوافية ، والسلام الأكمل على نور الحقّ ، ورسول الله إلى كافة الخلق ، سيدنا ؛ محمد بن عبد الله ، الرحمة المهداة ، وعلى آله وصحبه وتابعيه وسلّم ...

وبعد .

فمعلوم أنّ تحديد دلالة الكلمة الموظّفة في بنية لغوية ما يتمّ فيها تجاوز الدلالية المعجميّة المألوفة لتتشكّل دلالات جديدة بواسطة السياق قد تكون مجازيّة ، أو إضافيّة ، أو نفسيّة ، أو إيحائيّة ، أو اجتماعيّة ، وذلك لأنّ السياق هو الناظم الذي يعطي للكلمة في إرتباطها بما قبلها وما بعدها معناها المقصود ، إذ يُساق الكلام بوجه محدّد لإفادته على نسق معين من ترتيب لفظه .

والسياق هو الجوّ العام الذي يحيط بالكلمة وما يكتنفها من قرائن وعلامات .كما أنّه يشكّل النظام الداخلي الذي يجري عليه الكلام ، وتنتظم فيه المعاني والألفاظ المؤدية لها للتعبير عما في النفس بمفردات اللغة وتراكيبها ، وأساليب البيان المختلفة .

والسياق بوجه عام كما يقول د. عبد الرحمن بودرع : " إطار عامّ تنتظم فيه عناصر النّصّ ووحداته اللّغويّة، ومقياس تتّصل بوَساطَتِه الجُمل فيما بينها وترابط ، وبيئة لغويّة وتداوليّة ترعى مجموع العناصر المعرفية التي يقدّمها النّصّ للقارئ . ويضبط السّياقُ حركاتِ الإحالة بين عناصر

النّصّ ، فلا يُفهَم معنى كلمة أو جملة إلا بوصلِها بالتي قبلها أو بالتي بعدها داخل إطار السّياق " [1].

وكثيراً ما يَرد الشَّبه بين الجُمل و العبارات مع بعض الفوارق التي تميز بينها، ولا نستطيع تفسيرَ تلك الفوارق إلا بالرّجوع إلى السّياق اللّغويّ وملاحظة الفوارق الدّقيقة التي طرأت بين الجمل . فكلّ مَساقٍ للألفاظ يجرّ ضرباً من المعنى بجزئياته وتفاصيله .

إنّ السياق " هو مجموعة التتابعات الأسلوبية التي يجري عليها الكلام وهيكلته ، أي التي تُنْسَج مدخلاتها ومخرجاتها وفق المنهج السياقي ، وهو يمثّل المكوّنات الرأسيّة التي تحيط بالنصّ ، وتتجدّد من خلاله أبعاده الدلاليّة ، والجوّ العام الذي يحيط بالكلمة ، وما يكتنفها من قرائن وعلامات ، فالكلمة الواحدة والجملة الواحدة قد تحمل كلّ منها مدلولين متناقضيْن تماماً ، دون أن تختلف الكلمة في بنائها الداخليّ ، وإنّما الذي يتغيّر هو السياق والقرائن المحيطة " [2] .

والسّياق هو الصّورة الكلّيّة التي تنتظم بداخلها الصّورَ الجزئيّةَ ، ولا يُفهَم كلّ جزء إلا في موقعه من الكلّ ، فالصّورةَ الكلّيّة تتكوّن من مجموعة كبيرة من النّقاط الصغيرة أو المتشابهة أو المتباينة ، التي تدخل كلها في تركيب الصورة .

وعليه كان مناط الأمر من هذا البحث الوقوف على صور التشكيلات الدلالية لمصطلح السياق في التراث النقديّ والبلاغيّ بين الإمام عبد القاهر الجرجانيّ وسابقيه من النقاد والبلاغيين . فالإمام عبد القاهر الجرجانيّ شيّد

---

1 – د. عبد الرحمن بو درع ، منهج السياق في فهم النص ، 43 .

2 – د. عبد القادر عبد الجليل ، الأسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية ، دار صفاء ، الأردن ، 2002 ، 213 .

نظرية النظم قائمة في أسسها المختلفة على أساس السياق وتشكيلاته الدلالية وصوره المختلفة ، ولذا وجب البحث عن جهوده في هذا الإطارة مقارنة بجهود سابقيه .

وقد جاءت هذه المقاربة البحثية في مباحث تتمثل في :

* مفهوم السياق ودلالاته .
* مفهوم السياق في الدراسات الغربية .
* السياق عند البلاغيين قبل عبد القاهر الجرجاني .
* تشكيلات السياق عند عبد القاهر الجرجانيّ .

ثم أتبع ذلك بالخاتمة وما تضمنته من خلاصات للبحث . وشفع هذا بثبت المصادر والمراجع ....

والله من وراء القصد ، وعليه التوكّل والاعتماد ...

· السياق ودلالاته .

ما يهمّنا هنا هو تناول مصطلح السياق وقيمته في الدلالة ؛ لأنّ النصّ في كلام المتكلم لا يوجد منفرداً عن بقية أجزاء الكلام ، بل هو مسوق معها سوقاً ، ليؤدّي مجموع المعاني التي يريدها المتكلم من إنشاء هذا النص .

والدلالة المعجميّة لمصطلح السياق تدور حول معاني : قيادة الإبل ، وإعطاء المُهور ، ونزْع النفس والروح عند الموت ، لأنّ السياق نزْع الروح ، والإفضاء بالحديث ، والكلام في تتابع غير مخلّ [1] .

وتشير المعاجم المتخصصة في علوم اللغة واللسانيات إلى مفهوم محدّد للسياق كما في قاموس السيميائيات لغريماس وكورتيس إذ عرّفاه بأنه " مجموع النصوص التي تسبق أو تواكب وحدة تركيبية معيّنة ، وتتعلّق بها الدلالة ، حيث يمكن أن يكون السياق صريحاً أو لسانياً ، ويمكن أين يكون ضمنياً ، وفي هذه الحالة يتميّز بأنه سياق خارج لساني أو مقامي " [2] .

أما قاموس اللسانيات لدي بوا فيحدد معنى السياق بأنه " المحيط ؛ أي الوحدات التي تسبق أو تلحق وحدة محدّدة ، ويسمى بالسياق الشفوي . أو هو مجموع الشروط الاجتماعية التي يمكن أن تؤخذ بعين الاعتبار لدراسة العلاقات القائمة بين السلوك الاجتماعي والسلوك اللساني . وغالباً ما تُحدّد هذه العلاقات بالسياق الاجتماعي لاستعمال اللغة ، ونحدّده أيضاً

---

1 – ينظر مادة (سوق) : الأزهري ، تهذيب اللغة ، 426/4 . – ابن فارس ، مقاييس اللغة ، 370/3 . – الزمخشري ، أساس البلاغة ، 314/1 .– ابن منظور ، لسان العرب ، 166/10 .

2- A.J GRIMAS , J. COURTES : SEMIOTIQUE RAISONNE DE LA LANGUE , HACHTTE UNIVERSITE ; PARIS , 1965 , P:66 .

بقولنا : (المقام) ، وهو مجموع المعطيات المشتركة بين المتكلّم والمستمع في مقام ثقافي ونفسي لتجارب كلّ منهما " [1] .

إنّ السياق هو الحاضنة الأوفر حظاً للكلام عندما يتعانق لأداء مقاصد تواصلية محدّدة يريدها صاحب النص من نظم الكلام ، فالمتكلّم لا يلقي النصّ في فراغ بل يربطه دوماً بسياقه ، ذلك لأنّ " السياق يعني في دلالته الأولى البنية اللغوية في اتصالها بما قبلها وبما بعدها ، وهو ما نطلق عليه السياق اللغوي أو المقالي ، ويعني في دلالته الأخرى الظروف والملابسات التي تحيط بالحدث اللغويّ أو غيره ، وهو ما ندعوه بالسياق غير اللغوي أو المقامي " [2] .

وقد شغل الاهتمام بالمعنى المتخصصين كافةً على اختلاف ميادينهم ، وتظهر قضية المعنى عند العرب في اهتمامهم بالتعبير عن المعاني الأولى (المطروحة للجميع) ، بغية الوصول الى المعاني الثانية المتضمَّنة في بنية الخطاب الكلي . وهذا يتفق مع ما عناه بيير جيرو عند إيضاحه لأهمية السياق في الكشف عن المعنى ، وإزالة الغامض فيه إذ يقول : " إنّ الغموض الذي يلفّ العلامة المتعدّدة الدلالات يزول حين توضع في سياقها " [24] . فالكلمة أو العلامة لا معنى لها في ذاتها لأنّها قد تحتمل تغييرات دلاليّة كثيرة بحسب السياق الذي ترد فيه ، وهنا يأتي دور السياق ليحدّد الدلالة المقصودة ، ويزيل الغموض الذي يكتنفها في هذا المقام .

---

1 - JEAN DUBOIS , DICTIONNAIRE DE LINGUISTIQUE , LIBRAIRIE LARROUSSE , 1973 , P: 121 .

2 – د. سالم خدادة ، النقد والسياق ، مجلة العلوم الإنسانية ، جامعة البحرين ، ع 2 ، 1999 ، 113 .

وهو ما عناه د. محمد أبو الفرج إذ يقول : " السياق هو ما يصاحب اللفظ مما يساعده على توضيح المعنى " [1] .

وقد تناول جانب المعنى طوائف عدة من أهل العلم منهم ؛ المفسرون والبلاغيون والأصوليون ، لكن الأصوليين كانوا أكثر وضوحاً في تناوله ، وأكثر تفصيلاً لدقائقه .

وقد تناثرت أجزاء من بحث السياق في كتب النقد والبلاغة أيضاً ، إذ اهتم أصحابها بأطوار اللفظة ومادتها اللغوية عامة ، تمهيداً لتوجيه دلالتها في النصّ أو الموقف ، وكذلك هناك تعليلات لإفادة المعنى من خلال نظم خاص للألفاظ لم تكن تفهم لولا استعمالها في نص معين [2] .

وإذا كانت نظرية السياق قد نشأت في الغرب حديثاً وتطورت في ظلّ الدراسات اللغوية الحديثة ، فإنّ علماء العربية المسلمين سبقوا ذلك بمئات السنين في بيان أهمية السياق بعناصره المقالية والحالية ، ولعلّ أول من نصّ على ذلك الإمام الشافعي (204 هـ) ، إذ ذكر أن الكلام يكون " عاماً ظاهراً يراد به العام ، ويدخله الخاص ، وظاهراً يعرف من سياقه أنه يراد به غير ظاهره . فكلّ هذا موجود علمه في أول الكلام أو وسطه أو آخره" [3] . فقد يكون الظاهر من الكلام غير مقصود ، لكنّ السياق هو الذي يحدّد المعنى المراد .

كما نجد الإمام العز بن عبد السلام (ت 660هـ) يشير لأهمية الساق عند ترجيح دلالات بعينها في النصّ القرآنيّ إذ يقول : " وقد يتردّد معنى الآية بين مَحامِل يتساوى بعضها مع بعض ، ويترجّح بعضها على بعض ، وأولى

1 – د. محمد أبو الفرج ، المعاجم اللغوية في ضوء دراسات علم اللغة الحديث ، دار النهضة ، القاهرة ، 1985 ، 116 .
2 – ينظر : الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، 172/2 .
3 – الشافعي ، الرسالة ، 52 .

الأقوال ما دلّ عليه الكتاب في موضع آخر أو السنّة ، أو إجماع الأمة ، أو سياق الكلام ، وإذا احتمل الكلام معنيين ، وكان حمله على أحدهما أوضح وأشدّ موافقة للسياق كان الحَمْل عليه أولى " [1] .

والملاحظ أنّ العزّ بن عبد السلام يشير في النص السابق إلى أمرين غاية في الأهمية هما :

الأول : دور السياق في انتقاء الدلالة الراجحة للنص .

والثاني : دور السياق في عملية ترجيح الأقوال ذاتها .

وهما معاً يوضّحان أهمية السياق ومنزلته في الدراسات التفسيرية .

وبالجملة فإنّ الدراسات القرآنية في جانب التفسير اتفقت فيما بينها على اعتبار وظيفة السياق الترجيحية إحدى قواعد الترجيح المعتبرة . يقول الشيخ محمد رشيد رضا : " إنّ أفضل قرينة تقوم على حقيقة معنى اللفظ ؛ موافقته لما سيق له من القول ، واتفاقه مع جملة المعنى ، وائتلافه مع القصد الذي جاء به الكتاب جملة " [2] .

· مفهوم السياق في الدراسات الغربية :

تبدو نظرية السياق في ظاهرها من نتائج البحث الدلالي الحديث ، لكن جذورها ممتدة إلى علمائنا ولغوييننا القدماء ، مما يبدو واضحاً من بحوثهم المتعلّقة بالنص وتحليله .

ويدل لفظ (السياق) عند اللغويين المعاصرين على الإطار الذي جرى فيه التفاهم بين شخصين أو أكثر . فيشمل زمن الكلام والمفاهيم المشتركة والكلام السابق للمحادثة ، ويرادفه القرينة . وله أهمية كبيرة في البحث

1 – العز بن عبد السلام ، الإشارة إلى الإيجاز ، 220 .
2 – محمد رشيد رضا ، تفسير المنار ، 1 / 22 .

اللغوي المعاصر ، لغرض تحديد الدلالة ، حتى يصبح نظرية متكاملة ترتبط بتخصصات كثيرة [1] .

فـ(دو سوسير) يرى أنّ السياق يتركب من وحدتين متتاليتين فأكثر، وأن الكلمة تكسب قيمتها من موقعها ، مما هو سابق ولاحق بها [2] .

إنّ تحديد معنى الكلام بشكل دقيق يتطلّب الاستعانة بوسائل أخرى غير المعجم ومنها معرفة نسق الكلام ونظمه ، وكذلك الموقف والحالة الكلامية التي ترافق عملية الكلام . فدراسة معاني الكلام ودلالاته تتطلّب تحليلاً للسياقات والمواقف التي ترد فيها ، حتّى ما كان منها غير لغوي ، لأنّ " معنى الكلمة يتعدّل تبعاً لتعدّد السياقات التي تقع فيها اللفظة " [3] .

واستعمل هذا المصطلح (مالينوفسكي) الذي يعزو اللغويون المحدثون إليه نظرية السياق ، إذ تناول اللغة في دراسته لأثرها في المجتمعات البدائية ، بوصفها صيغة من الحركة ، وليست أداة انعكاس جامدة ، فاللغة الحية يتحكم بها السياق- كما يستعملها الناس- وأن وظيفة اللغة تتجاوز إيصال الفكرة والانفعال ، فهي نوع من السلوك ، مما يعلل الأخذ بالمقام (الموقف الكلامي) أو (القرائن الحالية) ، وهي جميع ما يحيط بالنص. فالكلام والموقف مرتبطان في أداء المعنى بما يسمى : سياق الموقف [4] .

ومن الجديد الذي اقترحه مالينوفسكي توظيف مصطلح (سياق الحال context of situation) توظيفاً خاصاً في إطار ما يُعرَف بالسياق الثانوي

---

1 – ينظر: فايز الداية ، علم الدلالة العربي ، 32 . د. صاحب أبو جناح ، السياق في الفكر اللغوي عند العرب ، 116 .

2 – ينظر : دو سوسير ، مدخل إلى علم اللغة العام ، 86 . – د. محمد الحناش ، البنيوية في اللسانيات ، 181 .

3 – د. أحمد مختار عمر ، علم الدلالة ، 69 .

4 – ينظر: د. أحمد مختار، علم الدلالة ، 71 . فرانك بالمر ، علم الدلالة ، 61 . د. محمود السعران ، علم اللغة ، 388 . د. طاهر حمودة ، دراسة المعنى ، 213 .

أو ما يدور حول النص من سياقات غير لغوية تسهم بدورها في إضاءة جوانب هذا النص [224] .

واقتفى (فيرث) أثر (مالينوفسكي) ، وطور نظريته ، ورفض المناهج البعيدة عن الواقع اللغوي في دراسة اللغة . وتتمثل نظريته في دراسة المعنى من خلال السياق بعناصره اللغوية والاجتماعية ، إذ " المعنى لا ينكشف إلا من خلال تسييق الوحدة اللغوية ، أي : وضعها في سياقات مختلفة " [1] ؛ لأن معنى الكلمة عند السياقيين هو استعمالها في اللغة ، فإن " معظم الوحدات الدلالية تقع في مجاورة وحدات أخرى ، وأن معاني هذه الوحدات لا يمكن وصفها أو تحديدها إلا بملاحظة الوحدات الأخرى التي تقع مجاورة لها " [2] .

ويرى "فيرث أنّ " المعنى مجموعة مركبة من العلاقات السياقية ، والصوتية ، والصرفية ، والمعجمية ، والدلالية " [3] . وهو يشبه المعنى وانتشاره عبر المستويات اللغوية المختلفة ، بانتشار الضوء المركب من أطوال موجية مختلفة في موشور زجاجي[4].

و يعلّق جون لوينز على هذا التشبيه بقوله: " إنّ هذا التشبيه لا يعنينا في شيء ، و لكنه يبيّن كيف أنّ "فيرث" اعتبر المعنى كشيء ذي مكونات مختلطة إلى درجة أنّه لا يمكن تمييزها دون تقسيمها إلى صيغ مختلفة بواسطة التحليل اللّساني " [5].

---

1 – د. أحمد مختار عمر ، علم الدلالة ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط3 ، 2003 ، 68 .

2 – ينظر: السابق ،68–69.

3 - Firth, papers in linguistic, oxford university, press new york, toronto 1957, p 19.

4 - Ebid, p 19.

5 - John lyons, élément de sémantique, p 234.

ويرى جوزيف فندريس أنّ " الذي يعيّن قيمة الكلمات في الحالات كلّها إنّما هو السياق ، إذ توجد الكلمة في كلّ مرة تستعمل فيها في جوّ يحدّد معناها تحديداً مؤقّتاً . والسياق هو الذي يفرض قيمة واحدة بعينها على الكلمة بالرغم من المعاني المتنوّعة التي في وسعها أن تدلّ عليها . والسياق أيضاً هو الذي يخلّص الكلمة من الدلالات الماضية التي تدعها الذاكرة تتراكم عليها ، وهو الذي يخلق لها قيمة حضوريّة " [1] .

وعليه فإنّ السياق يعدّ عاملاً حاسماً في تحديد دلالة اللفظ والتراكيب وهي في نسقها ونصّها ، أي في صورتها التركيبية التوظيفية ، حيث إنّ معاني الكلمات " هي نتائج لا يتوصّل إليها إلا من خلال تفاعل الإمكانيات التفسيرية لكامل الكلام ، أي لمجموع مكونات النصّ السياقية " [2] .

وتبعاً لهذا فإنّ السياق عند فيرث ينقسم إلى نوعين :

أ- السياق اللغوي : و يتمثل في العلاقات الصوتيّة و الفونولوجيّة والمرفولوجيّة و النحويّة و الدلاليّة .

ب - سياق الحال : ويمثله العالم الخارج عن اللغة ، بما له صلة بالحديث اللغويّ ، و يتمثل في الظروف الاجتماعيّة والبيئة النفسيّة و الثقافيّة للمتكلمين أو المشتركين في الكلام [3].

فإنْ كان السياق اللغوي هو مجموع العناصر اللغوية التي تحيط بجزء من الملفوظ ، فإنّ السياق غير اللغويّ أو المقام ، هو مجموع العوامل غير اللغوية التي تتحدّد بمقتضاها رسالة ملفوظ في لحظة معطاة في زمان

---

1 – جوزيف فندريس ، اللغة ، تعريب : عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، 1988 ، 231 .

2 – وليم إمبسون ، المبدأ الدلالي ، 126 .

3 – ينظر: د. حلمي خليل، العربية و علم اللغة البنيوي، 135.

ومكان معطيين[1] ، و هذه العوامل تتصل بالمخاطب والمُخَاطَب وظروف الخطاب المختلفة . و من هنا نرى أنّ المقام لا يمكن إلاّ أن يكون معقداً لاشتماله على العناصر غير اللغوية و غير المحدودة .

· عناصر المقام عند فيرث :

يقول فيرث : " إنّ سياق الحال يقودنا إلى الحديث عن العناصر الآتية:

أ- الأشخاص و الشخصيات التي لها علاقة بالموضوع (أفعال الأشخاص المترجمة بالأقوال، الأفعال غير المترجمة بالأقوال) .

ب- الأشياء التي لها علاقة بالموضوع .

ت- تأثير الأفعال المصحوبة بالأقوال "[2].

وهذه العناصر التي لابدّ من الرجوع إليها للاقتراب من سياق الحال أو المقام عند فيرث . غير أنّ بعض الذين تناولوا نظرية (فيرث) بالشرح ، توسعوا في هذه العناصر و فصّلوها أكثر فأصبحت تشمل[3]:

أ- طبيعة المشاركين و علاقاتهم فيما بينهم.

ب- عدد المشاركين.

ت- أدوار المشاركين؛ أستاذ/ طالب، طبيب/مريض، بائع /زبون...

ث- وظيفة فعل الكلام؛ إثبات، طلب، تمن، إغراء...

ج- طبيعة الوسيلة؛ كلام، كتابة: كلام مكتوب، كلام محقق بالحركات.

ح- صنف الخطاب؛ كلام سياسي، شعر ملحمي...

خ- موضوع الخطاب؛ تجربة علمية، رياضية، أدبية...

د- الوضعية الحالية؛ ضجيج، هدوء...

---

1 - Christian Baylon, et Paul Fabre, la sémantique, p 138.

2 - Firth, papers in linguistics, p 30.

3- ينظر: بالمر، علم الدلالة، 77. - حلمي خلال، العربية و علم اللغة البنيوي، 132.

كما أنّ كلّ محاولة لتحديد دلالة الكلمة أو الملفوظ لابد أن تمرّ على هذه الأصناف أو العناصر المقامية التي تشكّل في مجموعها الخلفية الاجتماعية للموقف، أو عناصر المقام عند فيرث .

أمّا السياق اللغويّ فهو ذو أهمية بالغة عند فيرث ، حيث يميز بين العلاقة القائمة في المحور التركيبيّ والتي يطلق عليها اسم (البنية) وبين العلاقة القائمة في المحور الاستبداليّ والتي يطلق عليها اسم (التنظيم)[1]. وكلّ هذا يؤكد أهمية السياق اللغوي في تمييز معنى الوحدات اللغوية حيث لا يمكن أن نعطيها معناها التام إلاّ من خلال السياق الذي ترد فيه.

و يعزو فرانك بالمر أهمية السياق اللغوي إلى أمرين:

أولا : أنّنا غالباً نستطيع أن نميز المعاني المختلفة بالنظر إلى السياقات اللغوية للكلمات ؛ و ذلك أنّ الكلمة تأخذ في سياق ما معنى يختلف عن معناها في سياق آخر.

ثانيا : أنّ الكلمات يكون لها معنى أكثر تحديداً في حالة تضام معين[2].

وبناءً على هذا الفهم يقسم السياقيون السياق إلى عدة أنواع [3] هي :

· السياق اللغوي :

وهو النظم اللفظي للكلمة وموقعها من ذلك النظم ، الذي يشمل الكلمات والجمل الحقيقية السابقة واللاحقة للكلمة ، والنص الذي ترد فيه ، أي موقعها من الجملة والنص وما يُكْسِبها من توجيه دلالي [4] .

1- ينظر: ميشال زكريا ، الألسنية ؛ المبادئ و الأعلام ، 283.

2 - ينظر : بالمر ، علم الدلالة ، 146 – 147.

3 - ينظر : د. أحمد مختار، علم الدلالة ، 69.

4 - ينظر : أولمان ، دور الكلمة في اللغة ، 54-55.

· سياق الموقف :

ويقصد به السياق الخارجي للغة ، ويشمل كل ما يحيط باللفظ من عناصر غير لغوية تتصل بالمكان والزمان ، أو شخصية المتكلم ، أو المخاطَب أو الحركات والإشارات التي تسهم في تحديد دلالة الكلمة [1] .

· السياق العاطفي :

وهو المعني بتحديد درجة القوة والضعف في الانفعال ، فكل كلمة أيا كانت توقظ في الذهن صورة ما بهيجة أو حزينة ، أو غير ذلك ، فهو يميز بين المعنى الموضوعي والمعنى العاطفي للكلمة [2].

· السياق الثقافي :

" ويقتضي تحديد المحيط الثقافي والاجتماعي الذي يمكن أن تستخدم فيه الكلمة " [3] .

· السياق السببي :

ويقصد به ما يرد في المعجم من تعليل لاستعمال الصيغة اللغوية على ما هي عليه ، وما يرافق الصيغة من تغيير في الاستعمال نتيجة لتغيير المواقف والظروف ، والأسباب الداعية لإطلاقها .

ويمكن أن نختصر هذه التقسيمات بسبب تداخل بعضها مع البعض الآخر إلى قسمين هما : السياق اللغوي وسياق الموقف أو الحال .

ويهتم السياق اللغوي بدراسة مستويات الكلام اللغوية الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية فيشرح مفردات الكلام ومدلولاتها إذ ترتبط أجزاء الجملة بعضها ببعض ، وتدلّ على مختلف العلاقات اللغوية بينها [4] ، ومن هنا تظهر قيمتها الدلالية بحسب وضعها في السياق ، وتعالق بعضها ببعض ،

---

1 – ينظر : د. محمود السعران ، علم اللغة ، 310–311.

2 – ينظر : د. أحمد مختار، علم الدلالة ،70–71.

3 – نفسه .

4 – ينظر : د. عواطف كنوش ، الدلالة السياقية عند اللغويين ، 48 .

ويكون الأثر الأساسي للسياق اللغوي هو تحديد هذه القيمة للكلمة ودلالتها في النظم ، وكذلك ترتيب النصوص اللغوية من حيث الوضوح والخفاء ، فضلاً عن الدور الأساس الذي يؤديه في اختيار بعض البدائل التي تؤثر في المتغيرات اللغوية باعتماده على قرائن سابقة أو لاحقة تتغير دلالة عنصر من عناصرها فيسبب تغيرا في دلالة النص " لأن العناصر المكونة للجملة لن تبقى بدون تغيير إذا صُرِفَ عنصر منها عن دلالته الأولى بقرينة ما " [1] .

أما القسم الثاني وهو سياق الحال فان مقتضى دوره يتأتى من أنّ اللغة ظاهرة اجتماعية يعبر بها الناس عن أفكارهم وحاجاتهم ، ولذلك فهي متأثرة بالمحيط الخارجي لها ، وبالتالي فاللغة تستخدم وسيلة تعبيرية تأثيرية وهي ليست شيئا مجردا عن الواقع الذي توجد فيه بل إن وظيفتها هي التفاعل مع هذا الواقع [2] .

وعليه لا يمكن لنا عزل عملية الكلام عن المحيط الخارجي للغة ، إذ يعتمد إفهام السامع على عملية التواصل بين المتكلم والمتلقي ، وما ترسب في ذهن كليهما من خبرة مشتركة حول معاني المفردات المستعملة ترشد إلى المعنى الكامل للجملة ، فسياق الحال يهتم بدراسة المحيط الذي يقع فيه الكلام ويشمل الظروف المحيطة بالحدث الكلامي لسياق الموقف ، ونوع القول وصفته ، اللغة أو اللهجة المستعملة ، والمتكلم أو الكاتب ، والمستمع أو القارئ ، والعلاقة بين المرسل والمتلقي من حيث الثقافة ، والجنس ، والعمر ، والطبقة الاجتماعية ، ووجود بعض الإيماءات أو أي إشارات عضوية [3] .

---

1 – د. محمد حماسة عبد اللطيف ، النحو والدلالة ، 117.

2 – ينظر : د. رمضان عبد التواب ، المدخل إلى علم اللغة ، 126–127.

3 – ينظر : د. محمود السعران ، علم اللغة ، 339 .

ولذلك نلاحظ أن دور سياق الحال أوسع مجالاً من السياق اللغويّ في تحديد الدلالة ، إذ يفرض على السياق اللغوي نوع الأسلوب ، والألفاظ المختارة لصياغة الكلام ، أي ضرورة مطابقة اللغة للمواقف . فسياق الحال يقتضي مراعاة المتكلم لحال السامعين وثقافاتهم ، وأن يوازن بين ما يقوله وبين ثقافة السامع أو المخاطب . وكذلك يتطلب سياق الحال موازنة بين الموقع الاجتماعي للمتحدث وأثره في اختيار اللغة أو الأسلوب . فمن المسلَّم به " أنّ اللغة تتغير تبعا للطبقة التي نتحدث بها " [1] ، فأسلوب المرأة يتسم بالرقة على عكس أسلوب الرجل . ويعرض لنا ابن جني (393هـ) مثالاً لذلك بقوله : " إن الندبة أكثر ما يتكلم بها النساء " [2] .

كما يقتضي سياق الحال اختلافات في مقامات الكلام وتفاوتها حسب المواقف والمواضع التي تقال فيها ، ولكل موقف أسلوبه الخاص ولغته الخاصة ، وهو ما عبر عنه علماؤنا القدامى بقولهم : (لكل مقام مقال) ، ولكن يبقى فهم المعنى المقصود من لدن السامع متطلبا لمعرفته بالمعنى الحرفي للجملة أو الكلام ، ثم يفسره تفسيراً جديداً في ضوء سياق الحال ، وعند مراعاة ما ذكر من مقتضيات السياق الخارجي ، فإنه يؤدي دوره المطلوب في التأثير وإثارة الانفعال لاتحاد الموقف المناسب مع النص أو الخطاب مع المعنى المراد نقله إلى السامع أو المتلقي نفسه [3] .

وعلى الرغم من سعة الدور الذي يؤديه سياق الحال سواء في تفسير المعنى أو إنتاجه ، أو الكشف عن خصائص النص ككل من خلال خصائص الموقف إلا إننا لا يمكن أن نغفل عن دور السياق اللغوي وأهميته في ذلك

1 – ماريو باي ، لغات البشر ، 83.
2 – ابن جني ، اللمع في العربية ، 12 .
3 – د. عواطف كنوش ، الدلالة السياقية عند اللغويين ،88.

، فالسياقان كلاهما يتضافران للوصول إلى الغاية الدلاليّة ذاتها ، فنحن نستمد معنى مصطلح لغويّ ما داخل جملة ما من مجمل المحادثة [1] ، أيّ بكل ظروفها وملابساتها .

ويشير فيرث إلى هذا التظافر فيما يراه من أن المعنى هو المحصلة النهائية لتحليل الحدث اللغوي تدريجيا على مستويات اللغة كافة ؛ الاجتماعية والصوتية والصرفية والنحوية والدلالية فيقول : " ولمعرفة المعنى يمكن أن نتقبل الحدث اللغوي بشكل كامل ، وبعد ذلك نختبره على مستويات مختلفة بالترتيب التنازلي مبتدئين بالسياق الاجتماعي " [2] .

وكذلك فإن مفهوم السياق عند أولمان لا يقتصر على الكلمات والجمل الحقيقية فحسب بل يشمل أيضا القطعة كلها ، والكتاب كله ، كما يشمل بوجه من الوجوه كل ما يتصل بالكلمة من ظروف وملابسات ، والعناصر غير اللغوية المتعلقة بالمقام الذي تنطق فيه ، ويرى أن نظرية السياق قد قادت إلى الحصول على مجموعة من النتائج الباهرة في علم المعنى إذ يؤدي السياق دورا بارزا في جلاء المعنى [3] .

فالسياق هو الذي يخلص الكلمات من المعاني المتراكمة في ذهن الإنسان ، وهذه من أهم مهامه ، وهو الذي يبين لنا فيما إذا كانت الكلمة تحتمل معنى واحدا أو معاني متعددة " إذ أن ما ندعوه : الظلال أو الألوان المتعددة لا يمكن أن تظل ماثلة عند وقوع اللفظ في سياق – أو نص– معين ، بل تجري حركة ذهنية توازن بين مختلف المعطيات ، وتناظر بين اللفظ وفحواه الوحيد الملائم للموقف" [4] .

---

1 – ينظر : يوجين نيدا ، نحو علم الترجمة ، 208.
2 – ينظر : د. عواطف كنوش ، الدلالة السياقية عند اللغويين ، 168–169.
3 – ينظر : أولمان ، دور الكلمة في اللغة ، 55 .
4 – د. فايز الداية ، علم الدلالة العربي ، 217.

فهناك عوامل سياقية متنوعة لغوية وحالية يمكن أن تمد المعنى بالعناصر العاطفية والانفعالية " إذ يتأرجح حول المعنى المنطقي لكل كلمة جو عاطفي يحيط بها وينفذ فيها ويعطيها ألوانا موقتة على حسب استعمالاتها . وهي التي تكوّن قيمتها التعبيرية" [1] .

لذا فإنّ السياق وحده يكشف لنا عن التبادل بين المعاني الموضوعية والمعاني العاطفية والانفعالية . ويحدّد السياق كذلك المعنى المركزي والمعنى الهامشي أو الثانوي [2] .

· السياق عند البلاغيين قبل عبد القاهر الجرجاني

يظهر إدراك البلاغيين لأهمية السياق في اشتراطهم مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، واشتهرت مقولاتهم أنّ : (لكلّ مقام مقال) و (لكلّ كلمة مع صاحبتها مقام) [3] ، والتي تعبّر عن ذلك ، إذ لا يقتصر المعنى على السياق اللغوي (المقال) ، بل يتجاوزه إلى سياق الحال (المقام) .

وهذا المبدأ البلاغيّ تضمنته صحيفة بشر بن المعتمر (210هـ) الذي نُقِلَ عنه قوله : " المعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة ، وكذلك ليس يقبح بأن يكون من معاني العامة ، وإنّما مدار الشرف على الصواب ، وإحراز المنفعة مع موافقة الحال ، وما يجب لكلّ مقام من المقال " [4] .

ويرى د. تمام حسان في إيمان البلاغيين العرب بفكرة المقام ومقتضى الحال بأنهم كانوا " عند اعترافهم بفكرة المقام متقدمين ألف سنة تقريباً على زمانهم ، لأن الاعتراف بفكرتي المقام أو المقال بوصفهما أساسين

---

1 – أولمان ، دور الكلمة في اللغة ، 56.

2 – فندريس ، اللغة ، 235.

3 – القزويني ، الإيضاح ، 1/ 9 . وينظر : د. فوزي عبد الرزاق ، السياق ودلالته في توجيه المعنى ، 34 .

4 – الجاحظ ، البيان والتبيين ، 1 / 136 .

متميزين من أسس تحليل المعنى يُعَدُّ الآن في الغرب من الكشوف التي جاءت نتيجة لمغامرات العقل المعاصر في دراسة اللغة " [1] .

وقد اهتم البلاغيون بملمح السياق وعدّوه أصلاً لما يمكن أن توصله الرسالة اللغوية ، وتنوعت تعليقاتهم حول السياق في إطار بحوثهم المختلفة للنص القرآني . ونلحظ عند أبي عبيدة (210 هـ) إشارته إلى الكيفية التي يتمّ التوصّل بها إلى فهم المعاني القرآنية ، وإدراك دلالاتها المتنوعة الثرية وذلك حسب السياق التي ترد فيه ، وكان ذلك حافزاً أساسياً لوضعه مؤلفه القيّم (مجاز القرآن) أو كما يقصده بأنّه " الطرق التي يسلكها القرآن في تعبيراته " [2] .

كما عمد أبو عبيدة إلى تبيان تلك الطرق الخاصة لأداء المعاني والدلالات في السياق القرآنيّ ببيان السياق الدلاليّ لها عن طريق تفسير الكلمة اللغوية التي تحتاج إلى تفسير بالقرائن السياقية المختلفة كما يشيع ذلك في كتابه، مثلما استعان بالجملة الشارحة أو المرادف المفسّر من المفردات وغيرها من القرائن السياقيّة . فقد استعان أبو عبيدة بمرجعية السياق اللغوي خلال حديثه عن أحرف الزيادة في الكلام ، وكيف أن هذه الزيادة تتمّ لسبب يقتضيه المقام أو سياق الكلام كما في قوله تعالى : ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ سورة الأعراف / 131 ، إذ يقول : " فإضافة (ألا) للتنبيه والتوكيد "[3] . فالإضافة الحادثة في بنية الآية بالأداة (ألا) إنّما استلزمها السياق تقوية للمعنى الجمالي فيها ، وتوكيداً للدلالة .

---

1 – د. تمام حسان ، اللغة العربية ؛ معناها ومبناها ، 337 .
2 – أبو عبيدة ، مجاز القرآن ، 19/1 .
3 – أبو عبيدة ، مجاز القرآن ، تحقيق : فؤاد سزكين ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 1988 ، 226/1 .

وأفرد الجاحظ (ت 255 هـ) في البيان والتبيين مبحثاً عن السياق المقاميّ [1] . يقول الجاحظ : " ينبغي للمتكلّم أن يعرف أقدار المعاني ، ويوازن بينها وبين أقدار المستعملين وبين أقدار الحالات ، فيجعل لكلّ طيقة كلاماً ، ولكلّ حالة من ذلك مقاماً ، حتّى يقسّم أقدار الحالات على أقدار المعاني ، ويقسّم أقدار المعاني على أقدار المقامات ، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات " [2] . فالجاحظ هنا يتناول بالتحليل مفهوم المقام من زاوية التخاطب ، حيث ربط بين المتكلّم والسامع من ناحية انتقال المعنى بينهما ، مما يحقق الهدف المرجو من العملية التواصليّة ، فبلوغ الرسالة النصيّة إلى ذهن المتلقّي قائمة على مراعاة أحواله المختلفة عند ممارسة فعل التلقّي .

ويحاول الجاحظ تفصيل الكلام أكثر في فكرة المقام / السياق بتحديده بعض الضوابط والشروط التي يجب توافرها في المتكلّك منشئ النصّ عند الشروع في توصيل رسالته ، مثل مراعاة مقتضى الحال ، وحسن اختيار الألفاظ المناسبة والموافقة لحالة السامع ، والأهمّ من ذلك كلّه تضافر كلّ الأدوات التي يملكها المتكلّم لضمان توصيل الرسالة ، وإفهام المتلقّي . يقول موجهاً حديثه للمتكلّم : " أن يكون لفظك رشيقاً عذباً ، وفخماً سهلاً ، ويكون معناك ظاهراً مكشوفاً ، وقريباً معروفاً ، إمّا عند الخاصة إن كنت للخاصة ، أو عند العامة ، إن كنت للعامة أردت ، والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة ، وكذلك ليس يتّضع بأن يكون من معاني العامة ، وإنّما الشرف على الصواب ، وإحراز المنفعة ، مع موافقة الحال ، وما يجب

1 – الجاحظ ، البيان والتبيين ، 1 / 136 .
2 – السابق ، 1/ 139 .

لكلّ مقام مقال " [1] . فالجاحظ يؤكّد هنا دوماً على الوظيفة الأهمّ للغة وهي الوظيفة التواصلية التي تتمّ بين أطراف عملية التواصل اللغويّ ، وكذلك ضرورة تحقيق الفهم والإفهام بين أطرافها من خلال توظيف الأسلوب اللغوي المناسب لحال المتلقي أو السامع .

كما كان كلامه عن تمييز أصناف الدلالات على المعاني مدخلاً لتمييز أساليب الدلالة على الأغراض ، وما تنتهجه تلك الأساليب للوصول إلى غاية المتكلم . يقول الجاحظ : " أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة : أولها اللفظ ، ثمّ الإشارة ، ثمّ العقد ، ثمّ الخط ، ثمّ الحال التي تسمّى نِصْبَة . والنّصبة هي الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف ، ولا تقصر عن تلك الدلالات ، ولكلّ واحد من هذه الخمسة صورة بائنة عن صورة صاحبتها ، وحلية مخالفة لحلية أختها ، وهي التي تكشف عن أعيان المعاني في الجملة ، ثمّ عن حقائقها في التفسير " [2] .

ومقصد الجاحظ هنا من (الحال) الدلالة على ملمح السياق الذي هو مناط الأمر في الحديث أو في عناصر الرسالة الكلامية .

ويؤكد الجاحظ على أنّ مدار الأمر في عملية التواصل اللغوي بكلّ أبعاده يتحدّد في أنّ " لكلّ ضرب من الحديث ضرب من اللفظ ، ولكلّ نوع من المعاني نوع من اللفظ ، ولذلك يجب إفهام كلّ قوم بمقدار طاقتهم ، والحمل عليهم على أقدار منازلهم " [3] . أيّ يجب عند صياغة الرسالة اللغوية مراعاة أحوال المتلقين ، وبيئة التلقي (سياقه) ، حتى تؤتي الرسالة ثمارها المرجوة .

---

1 – الجاحظ ، البيان والتبيين ، 136/1 .
2 – السابق ، 1/ 76 .
3 – نفسه ، 1 / 93 .

أمّا ابن قتيبة (ت 276 هـ) فقد تعرضّ لبيان مفهوم السياق / المقام ، ولم يختلف فهمه كثيراً عمّا قرره الجاحظ من قبله ، وذلك بإيضاحه لأهمية مراعاة حال المتلقي أثناء عملية التواصل ، والحرص على توصيل الرسالة ، وتحقيق مناط التواصل . يقول ابن قتيبة في بيان مراعاة حال المتلقّي : " الخطيب من العرب إذا ارتجل كلاماً في نكاح ، أو حِمَالة في تحضيض أو صُلْح أو ما أشبه ذلك ، لم يأت به من واد واحد ، بل يفتنُّ به ، فيختصر تارة إرادة التخفيف ، ويطيل تارة إرادة الإفهام ، ويكرّر تارة إرادة التوكيد ، ويُخْفِي بعض معانيه حتّى يغمض على أكثر السامعين ، ويكشف بعضها حتّى يفهمه بعض الأعجميين ، ويشير إلى شيء ، ويكنّي عن الشيء " [1] . فالمتكلّم عليه الإلمام بالكثير من التقنيات الأسلوبية التعبيرية حتّى يحقّق هدفه من إنشاء النصّ والرسالة ، ويصل إلى التأثير في المتلقّي الذي أمامه من خلال الاعتماد على مراعاة حاله ومقامه أثناء عملية التواصل .

كذلك يشير ابن قتيبة إلى فكرة المقام / السياق وضرورة مراعاته إذ يقول : " وتكون عنايته بالكلام على حسب الحال ، وقدر الحفل ، وكثرة الحشد ، وجلالة المقام " [2] . وهذا تدقيق واعٍ منه لكلّ مكونات العملية التواصلية بمفهومها اللغوي الحديث .

ومن وصايا ابن قتيبة للكتّاب بوجوب مراعاة مقتضى الحال عند ممارسة الصنعة ، وذلك في الألفاظ والمعاني على السواء . يقول : " ونستحبّ له (أي الكاتب) أن ينزل ألفاظه في كتبه فيجعلها على قدر

1 – ابن قتيبة ، تأويل مشكل القرآن ، تحقيق : السيد صقر ، دار التراث ، القاهرة ، 1988 ، 13 .

2 – نفسه .

الكاتب والمكتوب إليه ، وأن لا يعطي خسيس الناس رفيع الكلام ، ولا رفيع الناس وضيع الكلام " [1] .

ويرى ابن المعتز (ت 296 هـ) أنّ فكرة السياق هي مناط الأمر في عملية التواصل والتبليغ ، إذ الأهم أن يتحرّى المتكلّم القصدية في توصيل رسالته ، وألا يتجاوز المدى الزمني للكلام القدر المطلوب حتّى لا يفقد تركيز المتلقي ، وهذا مراعاة لحاله ، ولمقام الكلام . يقول : " البلاغة البلوغ إلى المعنى ، ولم يطل سِفْر الكلام " [2] .

ولا يختلف الأمر عند قدامة بن جعفر (ت 370 هـ) فعند حديثه عن المدح الذي يختلف بحسب الممدوح و مرتبته ، فإنّه يحسن من الشاعر الاهتمام بالمقام والمناسبة إذ يكون ذلك أوقع في نفس المتلقي ، وأشدّ تأثيراً . يقول : " أمّا مدح ذوي الصناعات ، فإنْ يمدح الوزير و الكاتب بما يليق بالفكرة و الروية ، وحسن التنفيذ والسياسة . وأمّا مدح القائد فبما يجانس البأس والنجدة ، ويدخل في باب الشدّة و البطش و البسالة . وأمّا مدح السوقة من البادية والحاضرة فينقسم بحسب انقسام السوقة إلى المتعيشين بأصناف الحرف وضروب المكاسب ، وإلى الصعاليك و الخراب والمتلصصة ، ومن جرى مجراهم" [3] .

ومن بحوث البلاغيين لمظاهر السياق ما أوضحه القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني (ت 392هـ) من وجود تأثير لبعض المواقف على سياق

---

1 – ابن قتيبة ، أدب الكاتب ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار التراث ، القاهرة ، 1988 ، 19 .

2 – الحصري ، زهر الآداب ، تحقيق : د. صلاح الدين الهواري ، المكتبة العصرية ، بيروت ، 201 ، 159/1 . ولم نجد هذا النص لابن المعتز في كتابه (البديع) ولا في كتابه (طبقات الشعراء) .

3– قدامة بن جعفر ، نقد الشعر، تحقيق : كمال مصطفى ، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1985 ، 87 .

البناء اللغوي ، ويتضّح هذا التأثير من خلال النص ذاته . يقول القاضي الجرجاني عند حديثه عن أسباب اختلاف الناس في مقامات التعبير : " يرقّ شعرُ أحدهم ، ويصلب ويسهل لفظ أحدهم ، ويتوعّر منطق غيره ، وإنّما ذلك بحسب اختلاف الطبائع ، وتركيب الخلق ، فإنّ سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع ، ودماثة الكلام بمقدار دماثة الخلقة . وأنت تجد ذلك ظاهراً في أهل عصرك ، وأبناء زمانك ، وترى الجافي منهم كزّ الألفاظ ، معقّد الكلام ، وَعِر الخطاب ، حتى أنّك ربّما وجدت ألفاظه في صوته ونغمته ، وفي جرسه ولهجته ، ومن شأن البداوة أن تحدث بعض ذلك " [1] .

ويرى د. هادي نهر في تعليقه على منهج القاضي الجرجاني في إبراز أثر السياق وتأثيره أنه توصّل إلى حقيقتين علميتين تُعدان حديثاً من منجزات الدلاليين المعاصرين ، وهما [2] :

الأولى : أنّ سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع ، والسلامة المقصودة عند الجرجاني لا تتمثل في السلامة اللغوية النابعة من بيئة اللغة من حيث بداوتها أو حضريتها ، وإنّما هي السلامة المرتبطة باتفاق العبارة أو الجملة مع الموقف النفسي للمرسِل أثناء صياغة رسالته .

والثانية : تميّز صاحب الرسالة ومنشؤها بخصائص في ألفاظه ولهجته ، مما يؤكّد أهمية الجانب الصوتي في صياغة الرسالة اللغوية ، وما يتعلّق بها من ظروف محيطة تتمثل في سياق الموقف أو المقام .

ويذهب أبو هلال العسكري (395هـ) إلى أنّ اختلاف العبارات يوجب اختلاف المعاني ، وأنّ السياق هو الوسيلة التي تفرّق بين قصدية معنى في

---

1 – القاضي الجرجاني ، الوساطة ، تحقيق : محمد البجاوي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، 2003 ، 187 .

2 – د. هادي نهر ، علم الدلالة التطبيقي ، دار الأمل للنشر ، الأردن ، 2007 ، 281 .

مقام عن معنى آخر ، فالمعاني تناسب ما تشير إليه . يقول : " الشاهد على اختلاف العبارات والأسماء يوجب اختلاف المعاني أنّ الاسم كلمة تدلّ على معنى دلالة الإشارة ، وإذا أشير إلى الشيء مرة واحدة فعُرِف "[1] . فالقيمة الوظيفية للكلمة تتضح من خلال سياقها التي قيلت فيه ، ومقامها التي تدلّ عليه .

و لا يقتصر الأمر في شأن المقام على مراعاة حال المخاطبين فحسب، بل إنّ الغرض الذي يكتب فيه يتحكم كذلك في خصائص الخطاب فإنّ " سبيل ما يكتب به في باب الشكر ألا يقع فيه إسهاب... وسبيل ما يكتب به التابع إلى المتبوع في معنى الاستعطاف و مسألة النظراء ألاّ يكثر من شكاية الحال ورقيتها... بل يجب أن يجعل الشكاية ممزوجة بالشكر و الاعتراف بشمول النعمة و توفير العائدة" [2]، و في قوله : (ما يكتب به التابع إلى المتبوع) إشارة إلى عنصر آخر ضمن عناصر المقام و هو العلاقة بين المشتركين في الخطاب ، التي أولاها الغربيون عناية كبرى في نظرية السياق .

يقول العسكري مؤكداً هذا الأمر : " فأمّا ما يكتبه العمال إلى الأمراء ومن فوقهم ، فإنّ سبيل ما كان واقعاً منها في إنهاء الأخبار وتقرير صور ما يلونه من الأعمال... أن يمد القول فيه حتى يبلغ غاية الشفاء و الإقناع" [3].

أما الرّماني (396هـ) فقد اتّضح في كلامه معرفته التامة بأهمية السياق في إدراك عناصر الرسالة اللغوية رغم ما يمكن أن يعتورها من انزياحات في

---

1 – أبو هلال العسكري ، الفروق في اللغة ، تحقيق : محمد إبراهيم سلم ، دار العلم ، القاهرة ، 2007 ، 13 .

2 – أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين ، تحقيق : محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الجيل ، بيروت ، 1988 ، 158.

3 – السابق ، 157.

التركيب أو في الدلالة عن طرق توظيف فنيات الحذف والاختصار والتقديم والتأخير [1] .

وترى د. عواطف المصطفى " أنّ حديث الرماني عن السياق بوصفه البيان هو الوسيلة الكاشفة لنا عن قناع المعنى ، وكذا السياق " [2] .

ويشير ابن طباطبا العلويّ (ت 322 هـ) إلى ضرورة موافقة المعاني للأحوال المختلفة للمتلقين ، إذ يكون لذلك الأثر الأكبر في توصيل الرسالة من جانب المنشئ ، وإبقاء أثرها مثلاً في النفوس ، وتتضاعف قيمتها إذا وافقت عند متلقيها مناسبة حاله ومقامه . يقول : " ولحسن الشعر وقبول الفهم إياه علّة أخرى ، وهي موافقته للحال التي يعدّ معناها له ، كالمدح في حال المفاخرة ، وحضور من يبكت بإنشاده من الأعداء ، ومن يُسَرّ به من الأولياء ، وكالهجاء في حالة مباراة المُهَاجِي والحطّ منه ، من حيث ينكى فيه استماعه له " [3] .

ويدور الباقلاني (ت 402 هـ) في الإطار ذاته إذ يقرّر أهمية الأخذ بفكرة المقام ، ومراعاة مقتضى الحال لأنّه شرط في إنجاح عملية الإبلاغ والتوصيل . يقول : " متى تأملت شعر الشاعر البليغ رأيت التفاوت في شعره حسب الأحوال التي يتصرّف فيها " [4] . فالشاعر المُجيد عليه أن ينوّع في شعره ، ويتصرّف فيه حسب المقامات رعاية لأحوال المتلقين لشعره .

---

1 – ينظر : الرماني ، النكت في إعجاز القرآن ، تحقيق : محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام ، دار المعارف ، القاهرة ، ط2 ، 1989 . 79–80 .

2 – د. عواطف كنوش المصطفى ، الدلالة السياقية عند اللغويين ، دار السياب ، لندن ، 2007 ، 97 .

3 – ابن طباطبا ، عيار الشعر ، تحقيق : د. محمد زغلول سلام ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، 1984 ، 9 .

4 – الباقلاني ، إعجاز القرآن ، تحقيق : السيد صقر ، دار المعارف ، القاهرة ، ط5 ، 1995 ، 31 .

كذلك يتناول المروزقي (ت 421 هـ) في شرحة حماسة أبي تمام مفهوم المقام وذلك عند مقارنته بين الشعراء والخطباء ، ويؤكّد أن مراعاة المقام أكثر ما يحتاج إليه الشاعر أو الخطيب عند توصيل نصّه ورسالته ، كي لا يسيء توظيف النص ، او يفقد فاعلية التواصل مع متلقّيه . يقول المرزوقي : " أمّا السبب في قلّة البلغاء وكثرة الشعراء ، ونباه هؤلاء وخمول هؤلاء ، فهو أنّ المترسّل محتاج إلى مراعاة أمور كثيرة إن أهملها أو أهمل شيئاً منها رجعت النقيصة إليه ، وتوجّهت اللائمة عليه ، منها ؛ تبيّن مقادير من يكتب عنه وإليه ، حتّى لا يرفع وضيعاً ، ويضع رفيعاً " [1] .

كما يرى المرزوقي أن مراعاة حال المتلقي تقتضي التفطّن لأمور كثيرة تتعلّق بمدى ملائمة الموضوع لمقتضى الحال ، والتدقيق في الصفات التي تليق بالمقام الرفيع ، والتي تليف بما هو عكس ذلك ، وكأنّه هنا يشير إلى ما يمكن تسميته (المكانة الاجتماعية للمتلقي أو المخاطَب) ، فالمتكلّم عليه أن يختار الألفاظ المناسبة للمكانة الاجتماعية لمن يكلّمه . يقول : " مراعاة وزن الألفاظ التي يستعملها في تصاريفه حتّى تجيئ لائقة بمَن يخاطَب بها ، مفخّمة لحضرة سلطانه التي يصدر عنها " [2] .

ويذهب ابن رشيق (456هـ) إلى اعتماد المقولة البلاغية (لكلّ مقام مقال) أساساً للبحث في فكرة السياق وتمثلاتها في الشعر والنثر . يقول في حديثه عمّا يحتاجه الشاعر : " أوّل ما يحتاج إليه الشاعر بعد الجدّ الذي هو الغاية ، وفيه وحده الكفاية ، حسن التأنّي والسياسة ، وعلم مقاصد القول ، فإن نسبَ ذلَّ وخضع ، وإن مدحَ أطْرى وأسْمَع ، وإن هجا أخلَّ وأوْجع ،

---

1 – المرزوقي ، شرح ديوان الحماسة ، تحقيق : غريد الشيخ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2003 ، 1/ 19 .

2 – السابق ، 20/1 .

وإنْ فخَرَ خبَّ ووضّع ، وإنْ عاتَبَ خفَضَ ورَفَع ، وإنْ استعطَفَ حنَّ ورجَع . ولتكن غايته معرفة أغراض المخاطَب كائناً مَنْ كان ، ليدخل إليه من بابه ، ويداخله في ثيابه ، فذلك هو سرّ صناعة الشعر ، ومغزاه الذي تتفاوت به الناس ، وبه تفاضلوا . وقد قيل : لكلّ مقام مقال " [1] .

ويرى د. ردّة الله أنّ ابن رشيق يربط قول الشعر بأغراضه التي هي عنده (المقامات التي يقال فيها) ، بل ويجعلها على نوعين هما :

الأول : المقامات الفردية التي تتمثّل في الأغراض الشعرية الذاتية للشاعر.

والثاني : المقامات الجماعية الاحتفالية ، أي خطاب الشاعر للآخرين .

وقصد ابن رشيق من ذلك إنما يتعلّق بما أورده من وجوب معرفة الشاعر بعلم مقاصد القول ، أي الأغراض (السياقات) التي ينبغي على الشاعر أن يراعيها عند إنشاء الشعر [2] .

ويتعرّض ابن سنان الخفاجي (ت 466 هـ) لبيان أهميّة مفهوم الحال والمقام في إيضاح قصدية المتكلّم ، وتوصيل هذا المعنى المقصود إلى المتلقّي ، مع مراعاة حاله وظروف تلقيه لهذا المعنى ، وأنّ هذه القاعدة هي الأساس في كلّ ما يؤلّف من نصوص . يقول : " أمّا الغرض فبحسب الكلام المؤلّف ، فإن كان مدحاً كان الغرض به قولاً ينْبِئ عن عظَم حال الممدوح ، وإن كان هجواً فبالضدّ ، وعلى هذا القياس كلّ ما يؤلّف " [3] .

---

1 – ابن رشيق ، العمدة ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، بيروت ، 1981 . 1 / 199 .

2 – د. ردة الله الطلحي ، دلالة السياق ، مطبعة جامعة أم القرى ، السعودية ، 2006 ، 91 .

3 – ابن سنان الخفاجي ، سر الفصاحة ، تصحيح : عبد المتعال الصعيدي ، مكتبة صبيح ، القاهرة ، 1969 ، 84 .

٠والخلاصة

ويمكننا إجمال القول في المقام عند البلاغيين قبل عبد القاهر الجرجاني ، في كونهم بحثوا مفهوم المقام / السياق ، وبيّنوا أهميته عند إنشاء النصّ ، وعند الخطاب للمتلقي ، وحدّد لذلك بعض الضوابط العامة التي لم تكن تجنح إلى التفصيل الدقيق ، بل إلى التعميم ، وبيان الأهمية .

كما يمكن أن نجمل عناصر المقام عندهم في ثلاثة أمور هي : (المخاطِب – والمخاطَب– والخطاب) . فهذه العناصر الثلاثة و ظروف كلّ واحد منها تتحكم في دلالة الخطاب ، و مدى مناسبته ، " فهناك أحوال ينظر فيها المتكلم ؛ أي أنّ المتكلم يكيّف كلامه في بعض الأحيان استجابة لحالته هو التي يحس بها ، كما أنّ هناك أحوالاً لا ترجع إلى المخاطَب بل إلى غيره ، و بهذا يتضح أنّ صاحب الحال قد يكون ذات المتكلم ، و قد يكون مخاطباً و هو الغائب ، و قد يكون غيرهما" [1].

و هناك أمر ذو بال ؛ و هو أنّ العناصر السابقة متشعبة و مترابطة يشكّل تفاعلها جميعاً (سياق الحال) أو المقام الذي يتحقّق ضمنه عملية الإبلاغ والتواصل ، ذلك أنّ أحوال المخاطبين تمتد لتشمل " جميع الظروف التي يتأثرون بها و تشكل أمزجتهم واتجاهاتهم ، كتحديد البيئة التي يسكنونها وحالة المناخ السائد فيها ، ونوع المهنة التي يشغلون بها ، وأحوالهم المعيشية ، والسياسية التي يخضعون لها ، والمذاهب التي يعتنقونها ، وغير ذلك من الظواهر الاجتماعية التي تؤثر في أجسام النّاس وعقولهم ، والوقوف عليها أمر مهم للبليغ " [2].

---

1 – عبد الستار حسين زموط، من سمات التراكيب ، مطبعة الحسين ، القاهرة ، 1992 ، 28 .

2 – فتحي فريد، المدخل إلى دراسة البلاغة، مكتبة النهضة ، القاهرة، 1978 ، 56.

ويرى د. ردة الله بن ضيف أنّ " البلاغيين اهتموا بالسياق بنوعيه ، إلا أنّ سياق الموقف لم يكن الاهتمام به متجهاً نحو الإفادة منه في الكشف عن المعنى بالقدر الذي تبرز أهميته في مطابقة الكلام له وفق خصوصية ما ترد فيه " [1] .

ولعلّ ما يفسر عدم وجود دراسات تنظيرية مستقلة عندهم – على الرغم من بيانهم أهمية السياق المقاليّ والحاليّ ، وإدراكهم لأبعاده– هو أن وضع نظرية متكاملة لم يكن هدفهم ، وإنما تأتي دراساتهم نتيجة الحاجة إلى فهم مدلولات النصوص ومقاصدها [2] .

· تشكيلات السياق عند عبد القاهر الجرجانيّ

تميّز عبد القاهرالجرجاني (ت 471 هـ) في تطبيق مفهوم السياق أثناء حديثه عن نظرية النظم ، اذ رأى أنّه " لا يعدّ الكلمة نقطة البدء– كما يُظنّ– وإنّما العكس هو الصحيح ، فالسياق هو نقطة البدء ، بحيث لا يمكن وجود كيان للتعبير إلا من خلاله ، وحينئذ من الواجب رصْد السياق ، ثمّ البحث عن الألفاظ وعلاقتها فيه ثانياً " [3] .

وركز الجرجاني اهتمامه بدلالة النظم (السياق) ، لأنّ اللفظ يكتسب معناه من التركيب إذ أنّ " الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لم توضع لتعرف بها معانيها في أنفسها ، ولكن لأن يضمّ بعضها إلى بعض ، فيعرف فيما بينها فوائد " [4] . حتى إنهم قد عرّفوا البلاغة بأنها مطابقة الكلام لمقتضى الحال أو المقام ، أو ما يسمى عند المحدثين (سياق الموقف) فمقام الفخر

---

1 – د. ردة الله الطلحي ، دلالة السياق ، 91 .

2 – محمد عبد الله سيف ، البحث الدلالي عند الشوكاني ، 99 .

3 – د. محمد عبد المطلب ، البلاغة والأسلوبية ، دار لونجمان للطباعة ، القاهرة ، 1994 ، 241 .

4 – عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، تحقيق : محمود شاكر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 2002 ، 386 .

غير مقام المدح ، وكلاهما يختلف عن مقام الدعاء أو الاستعطاف أو الهجاء أو غيرها . نلمح ذلك في قول القزويني (ت 739 هـ) : " أما بلاغة الكلام فهي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته . ومقتضى الحال مختلف ، فإنّ مقامات الكلام متفاوتة ، فمقام التنكير يباين مقام التعريف ، ومقام الإطلاق يباين مقام التقييد ، ومقام التقديم يباين مقام التأخير ، ومقام الذكر يباين مقام الحذف ، ومقام القصر يباين مقام خلافه ، ومقام الفصل يباين الوصل ، ومقام الإيجاز يباين مقام الإطناب ، وكذا خطاب الذكي يباين خطاب الغبي ، وكذا لكل كلمة مع صاحبتها مقام " [1] .

إنّ الكلمة المجرّدة عن السياق ليس لها معنى ، ومناط الأمر أن ينظر إليها بعد دخولها في السياق ، وضمّها مع نظائرها في نسق تركيبي دلاليّ . كما أنّ محاولة عبد القاهر الجرجاني البحث في جوهر النظم إنّما هو محاولة للكشف الأسلوبيّ عن فاعلية السياق ، لأنّه أراد من بحث فكرة النظم جلاء المعنى في كلّ مستوياته اللغوية والمقاميّة ، وكما يرى د. مصطفى ناصف لأنّ " المعنى يُفهم من السياق أكثر مما يُفهم من الوحدات الصريحة التي تؤلّفه ، أيّ أنّ السياق قد يعطي المدلولات التي لا يمكن أن تُعزَى بشكل مباشر بسيط إلى وحدة معيّنة ، أو وحدات مضمة آلية " [2] .

وقد عنوا ببيان أسرار التفاوت الجمالي بين الأساليب ، ولم يفصّلوا القول في بيان عناصر السياق اللفظي والحالي ، وما لها من أثر في الكشف عن المعنى ، وإن اعتمدوا على السياق عند معالجة أنماط التحليل الأدبيّ ، فأدركوا كيف يتغيّر معنى العبارة الواحدة بتغيّر المقام (الموقف الكلامي) ؟

1 – القزويني ، الإيضاح ، تحقيق : د. عبد الحميد هنداوي ، مؤسسة المختار ، القاهرة ، 1998 ، 9/1 .

2 – د. مصطفة ناصف ، نظرية المعنى في النقد العربي ، دار الأندلس ، بيروت ، 1990 ، 162 .

ومثال ذلك ما نلمحه في قوله تعالى : (وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا) يقتضي معنى العبارة في سياقها تقدير محذوف ، أي : واسأل أهل القرية . في حين أنّ هذه العبارة لا تحتمل الحذف في مكان آخر، فيما إذا كانت في " كلام رجل مرّ بقرية قد خربت ، وباد أهلها ، فأراد أن يقول لصاحبه واعظاً ومذكراً ، أو لنفسه متعظاً ومعتبراً : سل القرية عن أهلها ، وقل لهم : ما صنعوا ؟ على حد قولهم : سل الأرض : من شق أنهارك ، وغرس أشجارك ، وجنى ثمارك ؟ " [1] .

ورد أوّل ذكر للفظة السياق في دلائل الإعجاز عند حديث الإمام عبد القاهر الجرجاني عن أدلّة الإعجاز في النظم القرآني ، وكيف أنها قد جاءت في مجموعها موافقة لمعهود العرب في كلامهم ، لكنّها على غير مثال سابق . يقول : " أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه ، وخصائص صادفوها في سياق لفظه ، وبدائع راعتهم من مبادئ آيه ومقاطعها ، ومجاري ألفاظها ومواقعها ، وفي مضرب كلّ مثل ، ومساق كلّ خبر " [2] .

وبنظرة تحليليّة للنصّ السابق نجدّ ن الإمام عبد القاهر قد عدّد في النص أنواع السياق المعروفة دون أن يسميها بمصطلحاتها ، فقوله : (مجاري ألفاظها ومواقعها) ليست إلا ما نقصدة بالسياق اللغويّ ، وقوله : (ومضرب كلّ مثل) ما هو إلا المقام أو السياق المقاميّ ، وقوله : (ومساق كلّ خبر) إشارة إلى السياق الثقافيّ والاجتماعيّ والعاطفيّ . ولذا فإنّ هذا النص فريد في دلالاته ، شامل في معطياته ، يوضّح لنا بجلاء نظرة عبد القاهر إلى السياق وأنواعه ، وفنون تصرفه .

---

1 – عبد القاهر الجرجاني ، أسرار البلاغة ، تحقيق : الشيخ محمود شاكر ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 1991، 422 .

2 – عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، 39 .

ولذا فإنه من الملائم هنا أن نستعرض التشكيلات الدلالية المختلفة لمصطلح السياق بأنواعه عند عبد القاهر الجرجانيّ ، والوقوف على جماليات التحليل لهذه التشكيلات الدلالية .

· أنواع السياق عند عبد القاهر الجرجاني :

1 ـ تشكيلات السياق اللغويّ :

يذهب د. زيد عمر أن السياق اللغويّ " هو السياق الداخليّ الذي يعنى بالنظم اللفظي للكلمة ، وموقعها من ذلك النظم ، آخذاً بعين الاعتبار ما قبلها وما بعدها في الجملة " [1] .

وهذا التجاور الموقعي من خلال استعمال الكلمة داخل نظام الجملة مع كلمات أخرى هو الذي يكسبها معنى خاصا ومحدّداً " وهو كلّ ما يتعلّق بالإطار الداخليّ للغة (بنية النصّ) من تسلسل العناصر وترتيبها ، وتقارن المفردات ، وتتالي الوحدات ، وما يحتويه من قرائن تساعد على كشف دلالة الوحدة اللغوية الوظيفية ، وهي تسبح في نطاق التركيب ، ويتكوّن من السوابق واللواحق ، أي ما يتقدّم الكلمة وما يتبعها ليتّخذ المعنى شكلالحلقات اللغوية المتسلسلة ، والتي تعطي معنى متعاضداً ونامياً " [2] .

وتكمن أهمية السياق اللغوي في " توضيح العلاقات الدلالية عندما تستخدم مقياساً لبيان الترادف أو الاشتراك أو العموم أو الخصوص أو الفروق ونحو ذلك ، فالمعنى الذي يقدّمه المعجم عادة هو معنى متعدّد وعام ، ويتّصف بالاحتمال ، على حين أنّ المعنى الذي يقدّمه السياق هو معنى

---

1 – د. زيد عمر ، السياق القرآني وأثره في الكشف عن المعنى ، مجلة جامعة الملك سعود ، السعودية ، مج 15 ، ع 2 ، 2003 ، 877 .

2 – د. سالم عباس ، النقد والسياق ، مجلة العلوم الإنسانية ، جامعة البحرين ، ع 2 ، 1999 ، 113 .

معيّن ، له حدود واضحة ، وسمات محدّدة غير قابلة للتعدّد أو الاشتراك أو التعميم " [1] .

فالسياق اللغوي هو الضابط الدلاليّ لحركة المعنى ، وعلاقاته وعلائقه داخل النصّ وفق إشارات النص النابضة والمستقلّة ، والتي تقلّص احتمالات المعنى المغايرة للنصّ خارج القصديّة المرادة من قبل منتج النصّ .

وينقل بالمر عن (انكسفت) تحديده ثلاثة مقاييس للسياق اللغوي تتمثل في [2] :

الأول : الحقل الذي يربط الخطاب / النصّ بموضوعه .

والثاني : حالة الخطاب / النصّ .

والثالث : فحوى الخطاب / النصّ ومحتواه .

أما بحث السياق اللغوي عند عبد القاهر فقد حاز عناية كبرى من جانبه ، إذ اعتنى بالمقال بوصفه السياق اللغوي الذي يحدّد فصاحة اللفظة داخل التركيب اللغوي وعلائق النظم . يقول : " ومن المعلوم أن لا معنى لهذه العبارات وسائر ما يجري مجراها مما يفرد فيه اللفظ بالنعت والصفة ، وينسب فيه الفضل والمزية إليه دون المعنى ، غير وصف الكلام بحسن الدلالة وتمامها فيما له كانت دلالة " [3] .

كما أنّه لا معنى لتفاضل الألفاظ والكلمات دون النظر إلى السياق الذي ترد فيه ، " وهل يقع في وهم وإن جهد ، أن تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير أن ينظر إلى مكان تقعان فيه من النظم والتأليف ؟ وهل تجد أحداً

1 – د. أحمد قدور ، مبادئ اللسانيات ، دار الفكر ، دمشق ، 1996 ، 295 .
2 – فرانك بالمر ، علم الدلالة ، ترجمة : د. صبري السيد ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 1995 ، 146 .
3 – عبد القاهر ، دلائل الإعجاز ، 43 .

يقول : (هذه الفظة فصيحة) إلا وهو يعتبر مكانها من النظم ، وحسن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها ، وفضل مؤانستها لأخواتها " [1] .

وهذه الفكرة هي المحور الذي ظل الإمام عبد القاهر الجرجاني يدور معه ، ويدندن حوله في إثبات شواهد نظرية النظم . يقول : " وجملة الأمر أنّا لا نوجب الفصاحة للفظة مقطوعة مرفوعة من الكلام الذي هي فيه ، ولكنّا نوجبها لها موصولة بغيرها ، ومعلّقاً معناها بمعنى ما يليها . فإذا قلنا في لفظة (اشتعل) في قوله تعالى : (وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا) مريم /4 ، إنّها في أعلى المرتبة من الفصاحة ، لم توجب تلك الفصاحة لها وحدها ، ولكن موصولاً بها (الرأس) ، معرّفاً بالألف واللام ، ومقروناً إليها (الشيب) منكّراً منصوباً " [2] .

ومعلوم أنّ السياق اللغويّ يرتكز على تصرّفاته في المستويات اللغوية المختلفة ؛ الصوتيّ والصرفيّ والنحويّ والدلاليّ ، وهذا ما تناوله الإمام عبد القاهر الجرجاني بتحليل دقيق عميق نوضّحه كما يلي .

أ- السياق اللغويّ الصوتيّ :

يقتضي السياق اللغويّ الصوتي أن يتمّ التلاؤم بين اصوات الألفاظ وهي في حالة النظم ، وأن تتناسق فيما بينها ، فليست الألفاظ هدفاً وغاية في نفسها ما لم تتلائمّ مع متساوقاتها في السياق ، ذلك " لأنّ الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها " [3] .

وقد مثّل الإمام لذلك اللون من السياق الصوتيّ بقوله تعالى من سورة هـــــود : (وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ

1 – السابق ، 44 .
2 – عبد القاهر ، دلائل الإعجاز ، 402 .
3 – السابق ، 38 .

وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾) ، إذ يقول : " معلوم أنّ مبدأ العظمة في أن نوديت (الأرض) ثمّ أُمِرَت ، ثمّ في أنْ كان النداء (بيا) دون (أيّ) نحو : (يا أيتها الأرض) ، ثمّ إضافة (الماء) إلى (الكاف) دون أن يقال : (ابلعي الماء) ، ثمّ أن أُتْبِع نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنها ، ونداء السماء وأمرها كذلك بما يخصّها ، ثمّ أن قيل : (وغيض الماء) ، فجاء الفعل على صيغة (فُعِلَ) الدالة على أنّه لم يَغُضُ إلا بأمر آمر ، وقدرة قادر ، ثمّ تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى : (وقضي الأمر) ، ثمّ ذكر ما هو فائدة هذه الأمور وهو : (استوت على الجوي) ، ثمّ إضمار (السفينة) قبل الذكر كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن ، ثمّ مقابلة (قيل) في الخاتمة (بقيل) في الفاتحة . أفتَرَى لشيء من هذه الخصائص التي تملؤك بالإعجاز روعة ، وتحضرك عند تصوّرها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها ، تعلّقاً باللفظ من حيث هو صوت مسموع ، وحروف تتوالى في النطق ، أم كلّ ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتساق العجيب " [1] .

فعبد القاهر في هذا النصّ يحدّد لنا الاستبدالات الصوتية والدلالية التي تمّت في الآية الكريمة ، والانزياح الأسلوبي الحادث على مستويات عدّة . ومناط الأمر في كلّ هذه الاستبدالات الأسلوبية للأصوات المؤلّفة للألفاظ هو السياق والمناسبة التركيبية النظميّة .

فالسياق المقاليّ الصوتيّ يحكم الألفاظ في الترتيب بصياغتها ونسجها المحكم " مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها من بعض ، حتّى يكونلوضع كلّ لفظ حيث وُضِعَ علّة تقتضي كونه هناك ، وحتّى لو وُضِعَ في مكان غيره لم يصلح " [2] . فالأصوات مثل الكلمات عند عبد القاهر خاضعة لمقتضيات

1 – عبد القاهر ، دلائل الإعجاز ، 46 .
2 – السابق ، 83 .

النظم ، ولما يرمي إليه التكلّم من أغراض ، فلا يروق منها شيء إلا إذا كان منسجماً مع بقيّة الكلمات ، إذ الفضل والمزية نابعة من السياق الذي ترد فيه الكلمة بتأليفها الصوتيّ ، ولا تعدّ فصيحة إلا " بحسن ملاءمة معناها لمعنى جاراتها ، وفضل مؤانستها لأخواتها " [1] ، والأصوات بلا سياقمحال أن تؤدّي معنى ، " فإذا جئت بها أفراداً ، لم ترم فيها نظما ، ولم تحدث لها تأليفاً ، طلبتَ مُحَالاً " [2] .

ب- السياق اللغويّ الصرفيّ :

تناول عبد القاهر مسألة زيادات المبني وما تضيفه من دلالات يظهر أثرها السياقيّ داخل البنية التعبيريّة المضمومة إلى بعضها . فمثلاً يوضّح الإمام أثر توظيف الوحدات التصريفيّة (حروف العطف) في بنية الكلام ، وكيفية تأثير هذا التوظيف في السياق بقوله : " اعلم أنّه إنّما يعرض الإشكال في (الواو) دون غيرها من حروف العطف ، وذاك لأنّ تلك تفيد مع الإشراك معاني ، مثل أنّ (الفاء) توجب الترتيب من غير تراخ ، و(ثمّ) توجبه مع تراخ ، و(أو) تردّد الفعل بين شيئن وتجعله لأحدهما لا بعينه ، فإذا عطفتَ بواحدة منها الجملة مع الجملة ظهرت الفائدة " [3] . فهو هنا يحدّد الوحدات اللغوية الصرفية ؛ حروف العطف ، التي يجب على مستعمل اللغة معرفة مواطن توظيفها ، حيث ينبغي في السياق الملائم لها ، والمناسب لمعناها ودلالاتها ، فهذه الوحدات يجب توظيفها حيثما يقتضى المقام ذلك .

ومن باب السياق اللغوي الصرفيّ حديث الإمام عن فكرة العدول عن توظيف صيغة صرفيّة إلى توظيف أخرى مراعاة للمقام والسياق الذي ترد

1 - نفسه ، 36 .
2 - نفسه ، 367 .
3 - عبد القاهر ، دلائل الإعجاز ، 224 .

فيه . يقول : " انظر إلى قوله تعالى : (وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ) الكهف/ 18 ، فإنّ أحداً لا يشك في امتناع الفعل ههنا ، وأنّ قولنا : (كلبهم يبسط ذراعيه) لا يؤدّي الغرض ، وليس ذلك إلا لأنّ الفعل يقتضي مزاولة ، وتجدّد الصفة في الوقت ، ويقتضي الاسم ثبوت الصفة وحصولها من غير أن تكون هناك مزاولة وتزجية فعل ، ومعنى يحدث شيئاً فشيئاً " [1] . فتوظيف الصيغة الصرفية الاسمية في الآية الكريمة جاء متناسباً مع المقام الدلالي للقصّة ، من حيث أنّ أصحاب الكهف ثبت حالهم ، ولم يتجدّد فعلهم وفاء للمعجزة في حقّهم بإنامتهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً ، ولو عُدِلَ إلى توظيف الصيغة الفعلية (يبسط) لانتفى المعنى وتغيّر ، ولوقع اللبس والإلغاز ، أو كما قال عبد القاهر : (لا يؤدّي الغرض) .

ومنه أيضاً تعليقه على قوله تعالى في سورة فاطر : (هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾) بقوله : " لو قيل : (هل من خالق غير الله رازق لكم) لكان المعنى غير ما أُرِيد " [2] .

ج- السياق اللغوي النحوي :

يقصد بالسياق النحويّ في فهم الإمام بأنه تلك الكلمات التي يُضَمّ بعضها إلى بعض فيتّضح معناها من خلال السياق الذي ترد فيه ، بعد أن يتعلّق الفكر بما بين معاني الكلم من العلاقات التي هي معاني النحو ، إذ " لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتّى يعلق بعضها ببعض ، ويُبْنَى بعضها على بعض ، وتجعل هذه بسبب من تلك " [3] .

---

1 – السابق ، 175 .
2 – عبد القاهر ، دلائل الإعجاز ، 177 .
3 – السابق ، 44 .

ومن أمثلة ذلك عند حديث الإمام عن معاني الإثبات بتوظيف (إنْ / إلا) . يقول : " ومما جاء فيه الإثبات بـ(إن وإلا) على هذا الحدّ قوله تعالى : (وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾) يـــس ، وقوله تعالى : (وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾) النجم ، أفلا ترى أنّ الإثبات في الآيتين جميعاً تأكيد وتثبيت لنفي ما نُفِيَ ، فإثبات ما عُلّمَه النبي صلى الله عليه وسلّم وأُوحِيَ إليه ذكراً وقرآناً ، تأكيد وتثبيت لنفي أن يكون قد عُلِّمَ الشعر . وكذلك إثبات ما يتلوه عليهم وحياً من الله تعالى ، تأكيد وتقرير لنفي أن يكون نُطِقَ عن هوى " [1] .

فالتوظيف السياقيّ للبنية النحوية (إنْ / إلا) جاء على معنى إثبات أغراض التوكيد والتقرير لما تمّ تقريره ، ونفي ما وَجَبَ نَفيه في حقّه صلى الله عليه وسلَم من خلال تلك البنية التركيبيّة مع مراعاة السياق .

وفي حديثه عن علّة التقديم والتأخير في قوله تعالى من سورة فاطر : (إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾) ، حيث جاءت بنية الآية القرآنيّة الكريمة بتقديم المفعول به لفظ الجلالة (الله) على الفاعل (العلماء) . ويحلّل الإمام هذا التقديم والتأخير في ضوء السياق للآية القرآنيّة الكريمة بقوله : " تقديم اسم الله تعالى إنّما كان لأجل أن الغرض أن يُبيّنَ الخاشون مَن هُم ؟ ويخبر بأنّهم العلماء خاصة دون غيرهم ، ولو أُخِّرَ ذكر اسم الله وقُدِّمَ (العلماء) فقيل : (إنّما يخشى العلماءُ اللهَ) لصار المعنى على ضدّ ما هو عليه الآن ، ولصار الغرض بين (المَخْشِيّ) من هُو ؟ والإخبار بأنّه الله تعالى دون غيره ، ولم يجب حينئذٍ أن تكون الخشية من الله تعالى مقصورة على العلماء ، وأن يكونوا مخصوصين بها كما

1 – نفسه ، 231 .

هو الغرض في الآية ، بل يكون المعنى أنّ غير العلماء يخشون الله تعالى أيضاً ، إلا أنّهم مع خشيتهم الله تعالى يخشون معه غيره ، والعلماء لا يخشون غير الله تعالى "[1] . وهذا تحليل عميق لمواقع النظم النحويّ الي روعي فيه الغرض والسياق والمقام .

د – السياق اللغوي الدلالي :

ويقصد به السياق الذي ينعقد للإبانة عمّا في النفس ، أو هو السياق الذي يدرس المعنى الذي من أجله يُقَام النظم ، وتُرَاعى أحكام النحو . يقول الإمام : " لا يكون لإحدى العبارتين مزيّة على الأخرى حتّى يكون لها في المعنى تأثير لا يكون لصاحيتها "[2] .

ونلمس هذا الفهم للسياق الدلالي عند الإمام في تحليله لقوله تعالى من سورة الإسراء : (قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا ﴿١١٠﴾) إذ يقول : " من نظر إلى قوله تعالى : (قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ) ، ثمّ لم يعلم أنْ ليس المعنى في (ادعوا) الدعاء ، ولكن الذكر بالاسم ، كقولك : (هو يُدْعَى زيداً) و (يُدْعَى الأمير) ، وأنّ في الكلام محذوفاً ، وأنّ التقدير : (قل ادعوه الله أو ادعوه الرحمن أيّا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى) ، كان بعَرَضٍ أن يقع في الشرك من حيث إنّه إنْ جرى في خاطره أنّ الكلام على ظاهره ، خرج ذلك به والعياذ بالله إلى إثبات مدْعُوّيْن ، تعالى الله عن أن يكون له شريك . وذلك من حيث كان محالاً أن تعمد إلى اسمين كلاهما اسم لشيء واحد ، فتعطف أحدهما

1 – عبد القاهر ، دلائل الإعجاز ، 339 .

2 – عبد القاهر ، دلائل الإعجاز ، 199 .

على الآخر فتقول : (ادع لي زيداً أو الأمير) ، والأمير هو زيد ، وكذلك محال أن تقول : (أيّا ما تدعوا) وليس هناك إلا مدعوّ واحد ، لأنّ من شأن (أيّ) ان تكون أبداً واحداً من اثنين أو جماعة ، ومن ثمّ لم يكن له بدّ من الإضافة إمّا لفظاً أو تقديراً " [1] .

والنصّ السابق حافل بالتوجيهات السياقيّة في باب الدلالة اللفظية مثلما تمّ توجيه دلالة الفعل (ادعو) للذكر بدلا من النداء مراعاة للسياق ، واستلزم ذلك دفع توهّم الخاطر الإشراك بالله تعالى . كذلك تمّ توجيه دلالة (أيّ) سياقياً على محدّد واحد لا أكثر من ذلك ، مما يستقيم مع معنى الآية الكريمة ، والمقصود منها .

كذلك من أمثلة ذلك ما يعرض له الأإمام عبد القاهر من تحليل للسياق الدلالي في قوله تعالى من سورة المنافقون : ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝﴾ إذ يقول : " أفلا ترى أنّه لا يقع في نفس مَنْ يعقِل أدنى شيء إذا هو نظر إلى قوله تعالى : ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ﴾ ، وإلى إكبار الناس شأن هذه الآية في الفصاحة أن يضع يده على كلمة كلمة منها فيقول : (إنها فصيحة) ، كيف؟ وسبب الفصاحة فيها أمور لا يَشُكّ عاقل في أنّها معنويّة : أّلها : أن كانت (على) فيها متعلّقة بمحذوف في موضع المفعول الثاني . والثاني : أن كانت الجملة التي هي (هم العدو) بعدها عارية من حرف عطف . والثالث : التعريف في (العدوّ) ، وأن لم يقل : (هم عدوّ) . ولو أنّك علّقت (على) بظاهر ، وأدخلت على الجملة التي هي (هم العدوّ) حرف عطف ،

---

1 – السابق ، 375 .

وأسقطت الألف واللام من (العدوّ) فقلت : (يحسبون كل صيحة واقعة عليهم وهم عدوّ) ، لرأيتَ الفصاحة قد ذهبت عنها بأسرها ، ولو أنّك أخطرت ببالك أن يكون (عليهم) متعلّقاً بنفس (الصيحة) ، ويكون حاله معها كحاله إذا قلت : (صحتُ عليه) ، لأخرجته عن أن يكون كلاماً ، فضلاً عن أن يكون فصيحاً ، وهذا هو الفيصل لمن عقل " [1] . وهذا التحليل الدقيق يظهر بجلاء وعي الإمام بتشكيلات السياق المقاليّ الدلاليّ .

2ـ السياق المقامي [سياق الموقف] :

إنّ فكرة المقام تمثل مركز الدلالة الوظيفية من حيث إبراز مختلف الجوانب التي تظهر فيها الأحداث اللغوية، والعلاقات والظروف المقتضية لإيراد الكلام . وعليه فإنّ السياق غير اللغوي أو المقام : هو مجموع العوامل غير اللغوية التي تتحدّد بمقتضاها رسالة ملفوظ في لحظة معطاة في زمان ومكان معطيين ، و هذه العوامل تتّصل بالمخاطِب و المُخَاطَب وظروف الخطاب المختلفة [2] .

والمقام هو ما ينتظم القرائن المقامية التي تفسّر الغرض الذي جاء النصّ لإفادته ، سواء كانت قرائن في الخطاب ذاته أو في المتكلم أو في المخاطب أو في الجميع . أو بتعبير آخر هو السياق الذي يشير إلى النواحي المباشرة للنصّ والتي يمكن ملاحظتها أثناء حدوث الكلام مثل الإطار والمشاركين والنشاطات التي وقعت فيه [3] .

---

1 – عبد القاهر ، دلائل الإعجاز ، 403 .

2 – ينظر : نجم الدين الزنكي ، نظرية السياق: دراسة أصولية، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2006 ، 35 .

3 – ينظر : د. تمام حسان ، اللغة العربية : معناها ومبناها، دار الثقافة، المغرب، 1994م، 349-350.

و من هنا نرى أنّ المقام لا يمكن إلاّ أن يكون معقداً لاشتماله على العناصر غير اللغوية و غير المحدودة . ويرى د. عبد الواسع الحميري أن السياق المقاميّ يتمثّل في " مجموعة المحدّدات المجتمعية والسوسيولوجية (مستشفى / فصل دراسي / محكمة) ، أو ظروف الحياة اليوميّة (مطعم / محادثة غير رسمية) ، التي تحدّد العادات الفكرية ، وتوزّع الأدوار التي يؤدّيها المشاركون من خلال عملية التخاطب ، لذلك نجد أنّ للمراتب الاجتماعية ، وسلطة القائل أهمية بالغة في التوجيه السياقيّ إذا ما أريد فهم مقطع خطابيّ " [1] .

وكذلك تناول الجرجاني أثر السياق المقاميّ في ربط الكلام بمقام الاستعمال ، ومراعاة مقتضى الحال . ففي حديثه عن عدم اقتناعه بكون التقديم والتأخير يكون فقط للعناية والاهتمام يقول : " وقد وقع في ظنون الناس أنّه يكفي أن يقال : (إنّه قُدِّمَ للعناية ، ولأنّ ذكره اهمّ) ، من غير أن يذكر ، من أين كانت تلك العناية ؟ وبم كان أهمّ ؟ أنّ ذلك ذهب بهم عن معرفة البلاغة ، ومنعهم أن يعرفوا مقاديرها ، وصدّ بأوجههم عن الجهة التي هي فيها ، والشقّ الذي أوجبها ، والمدخال التي تدخل منها الآفة على الناس في شأن العلم " [2] .

إن الاهتمام الأحادي هو الذي يجعل صاحب النص يهمل العديد من الجوانب في العملية التواصلية ، منها إهمال مراعاة أحوال المتلقين ، ومقامات التخاطب .

---

1 – د. عبد الواسع الحميري، الخطاب والنص ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، بيروت ، 2008 ، 133 .

2 – عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، 108 .

وفي سياق آخر يحدّد الإمام أنّه ربما يعرض للمتكلّم أحوال يحذف فيها من كلامه رعاية للحال الذي يكون عليه المتلقي ، وهذه الراعية أصل في إنشاء الخطاب . يقول : " الفاعل قد يكون له مفعول مقصود قصده معلوم ، إلا أنّه يحذف من اللفظ لدليل الحال عليه . ونوع منه أن تذكر الفعل وفي نفسك له مفعول مخصوص قد عُلِمَ مكانه ، إمّا لجَرْي ذكر ، أو دليل حال ، إلا أنّك تُنسيه نفسك وتُخفيه " [1] .

إنّ المعنى عند عبد القاهر يمكن أن يُفهم من لفظ العبارة ، ويكون ذلك حال استعمالها لما وضعت ، وإما أن يؤخذ من علاقة العبارة بظروف إنتاجها أيّ مما يسميه (مقتضى الحال) .

3ـ السياق الثقافي والاجتماعي :

يقصد بالسياق الثقافي / الاجتماعي " المحيط الذي تعيش داخله الوحدات اللغوية المستعملة ، وغالباً ما يكون المحيط اجتماعياً ، ويُسَمّى السياق الخارجيّ أو السياق العام ، أو سياق الحال ، أو المقام ، أو سياق الموقف ، أو السياق الاجتماعيّ . وهو مجموعة الظروف التي تحيط بالحدث الكلاميّ ابتداءً من المُرسِل والوسط حتّى المرسَل إليه (المتلقّي) بكل التفصيلات والمواصفات الصغيرة " [2] .

ونلمس هذا النوع من السياق عند الإمام في مواطن كثيرة خاصة عند حديثه عن الاستعارة والكناية بما يملكانه من أبعاد اجتماعيّة تتعلّق بالتأويل والتفسير اللغوي والثقافي لهما داخل البيئة التي تحيا فيها اللغة . فالدلالة في الاستعارة والكناية لا تحصل بالوقوف على المعاني المعجمية للمفردات

---

1 – عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، 155 .

2 – فاطمة الشيدي ، المعنى خارج النص ؛ أثر السياق في تحديد دلالات الخطاب ، دار نينوى ، دمشق ، 2011 ، 44 . وينظر : د. أحمد مختار عمر ، علم الدلالة ، 70 . – د. أحمد قدور ، مبادئ اللسانيات ، 298 .

، بل إنّ مناط الأمر في تراكب الدلالات فوق بعضها من خلال حياة اللغة في السياق الثقافي والاجتماعي . يقول : " وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ، ولكن يدلّك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة ، ثمّ تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض ، ومدار الأمر على الكناية والاستعارة والتمثيل " [1] .

كما أنّ الاعتماد على الثقافة الذاتية للمتلقي ، ورعاية استعمال الكلمة في محيطها الاجتماعي هو المقصود الأوفي بالسياق الثقافي أثناء تأويل البنية الكنائية أو الاستعارية . فالاستعارة لا يمكننا فهم مغزاها خارج إطارها الجمالي الذي تستعمل فيه ، فالكلمات والمواقف التي تتداخل معاً في بناء بنية الاستعارة ، وتشكيل أبعادها لغوياً وجمالياً وثقافياً يتمّ اللجوء إليها جميعاً عند تأويل هذه البنية الاستعاريّة ، كما أنّ " سياق الاستعارة أو الانطباعات أو الارتباطات القائمة حولها يوسّع مدلول الكلمات الأصليّ ، ويُحْدِث تغيّراً جوهرياً فيه . وأنّ المتلقّي من أجل أن يدرك فاعلية الاستعارة عليه أن يبدا من الاستعمالات الماضية ، وأن يوجّه اهتمامه إلى المواقف القديمة والمواقف الجديدة معاً " [2] .

وقد وظّف الإمام السياق الثقافيّ في التمييز بين الحقيقة والمجاز ، وما يتصل بثقافة المتكلم ومعتقداته . فقد عَلَّقَ على قول الصلتان العبدي [3]:

أشابَ الصغيرَ وأفنى الكبيرَ كَرُّ الغداةِ ومَرُّ العشيّ !

1 – عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، 262 .
2 – د. تامر سلوم ، نظرية اللغة والجمال ، دار الحوار ، دمشق ، 1998 ، 322 .
3 – ينظر : المبرد ، الكامل في اللغة والأدب ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، بيروت ، 1997 ، 101/3 .

وقول ذي الإصبع العدواني [1] :

أَهْلَكَنَا الليلُ والنهارُ معاً والدهرُ يغدو مُصَمِّماً جَذَعاً !

بقوله : " كان طريق الحكم عليه بالمجاز أن تعلم اعتقادهم التوحيد ، إما بمعرفة أحوالهم السابقة ، أو أن تجد في كلامهم من بعد إطلاق هذا النحو ، ما يكشف عن قصد المجاز فيه " [2] .

4ـ السياق النفسيّ / العاطفيّ

وهو الذي يحدّد طبيعة استعمال الكلمة بين دلالتها الموضوعية ؛ التي تفيد العموم ، ودلالتها العاطفي التي تفيد الخصوص [3]، فيحدّد درجة القوّة والضعف في الانفعال ، مما يقتضي تأكيداً أو مبالغةً أو اعتدالاً [4] .

كما تكون طريقة الأداء الصوتية كافية لشحن المفردات بالكثير من المعاني الانفعالية والعاطفية ؛ كأن تُنْطَق وكأنها تمثّل معناها تمثيلاً حقيقياً . ولا يخفى ما للإشارات المصاحبة للكلام في هذا الصدد من أهمية في إبراز المعاني الانفعالية [5] .

ويرى بالمر العلاقة بين علم النفس واللسانيات مهمة إلى الحد الذي أدى إلى ظهور اللسانيات النفسية ، فالمدخل النفسي إلى اللغة يكمن مبدئيا في محاولة تفهم العمليات التي تمر بها اللغة في حالتي المتكلم والسامع [6] .

---

1 – ينظر : ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، تحقيق : أحمد شاكر ، دار الحديث ، القاهرة ، ط2 ، 1998 ، 2/ 579 .

2 – عبد القاهر الجرجاني ، أسرار البلاغة ، 389 .

3 – ينظر : د. أحمد قدور ، مبادئ اللسانيات ، 297 .

4 – ينظر : د. أحمد مختار عمر ، علم الدلالة ، 70 .

5 – ينظر : د. محمود السعران ، علم اللغة ، 302 .

6 – بالمر ، علم الدلالة ، 304 .

وبهذا فإنّ مسألة التأثير لا تقع على المتلقي أو السامع حصراً ، وإنّما يكون للتأثير سطوة على المتكلم أيضا ، وذلك من جهة قدرته على استيعاب مدى التأثير الدلاليّ الذي تحدثه لفظة دون أخرى التي يوردها في سياق معين دون آخر ، فالسياق هو الذي يوجّه الدلالة النفسية أو العاطفية ، فإذا دخلت لفظة في سياق معين يكون لها دلالة نفسية معينة تتناسب مع دلالة السياق ، بخلاف ما لو استُبدِلَت من غيرها ، وبهذا نجد أنّ السياق هو الحاكم في انتقاء اللفظة ذات التأثير الذي يتلاءم معه مراد المتكلم .

وإذا قلنا بأنّ التأثير له ارتباط بالمتكلم فإنّ هذا " المضمون أو الارتباط النفسي يختلف من متكلم إلى آخر "[1] .وينطبق هذا القول على المتلقّي كذلك ؛ لأنّ الإفراد يتباينون في درجة تقبّلهم النفسيّ لبعض الألفاظ دون غيرها على وفق ما تثيره لفظة ما من استجابة أو ردّة فعل لا تُحدثها لفظة مغايرة .

ونلمس عند الإمام عبد القاهر الجرجانيّ إدراكاً لقيمة السياق النفسيّ / العاطفيّ ، لأن التعبيرات اللغويّة يختلف الأثر النفسي لها من مقام لمقام . يقول : " لا يكون لإحدى العبارتين مزيّة على الأخرى حتّى يكون لها في المعنى تأثير لا يكون لصاحبتها . فإن قلت : فإذا افادت هذه ما لا تفيد تلك ، فليستا عبارتين عن معنى واحد ، بل هما عبارتان عن معنيين اثنين ، قيل لك : إنّ قولنا : المعنى في مثل هذا يُرَاد به الغرض . والذي أراد المتكلّم ان يتبته أو ينفيه ، نحو : إن تقصد تشبيه الرجل بالأسد فتقول : زيد كالأسد ، ثمّ تريد هذا المعنى بعينه فتقول : كأنّ زيداً الأسد ، فتفيد

[1] -د. محمود السعران ، علم اللغة ، 302 .

تشبيهه أيضاً بالأسد ، إلا أنّك تزيد في معنى تشبيهه به زيادة لم تكن في الأوّل ، وهي أن تجعله من فرط شجاعته وقوة قلبه ، وأنّه لا يروعه شيء بحيث يتميّز عن الأسد ، ولا يقصر عنه ، حتّى يتوهّم أنّه أسد في صورة آدمي " [1] .

فالفرق بين التعبيرين (زيد كالأسد) و (كأنّ زيد الأسد) هو فرق تأثيريّ نفسيّ كما يشير إلى ذلك الإمام عبد القاهر ، فالمعنى الذي يصل المتلقّي من التعبير الأول هو مجرّد التشبيه ، في حين أن التعبير الثاني يصل إلى المتلقي وهو مجهّز نفسياً وعاطفياً (أنّه أسد صورة آدمي) بتعبير الإمام نفسه .

كذلك نلمح تحليلاً معتمداً على السياق النفسي في التفريق بين العبارات المختلفة ، ودرجة تأثيرها في نفوس المتلقّين . يقول : " الطبع لا يتغيّر ، ولست تستطيع أت تخرج الإنسان عمّا جُبِلَ عليه ، فترى معنى غفلاً عامياً معروفاً في كلّ جيل وأمّة ، ثمّ تنظر إليه في قول المتنبّي :

يُرَاد من القلب نسيانكم وتأبى الطّباع على النّاقلِ

فتجده قد خرج في أحسن صورة ، وتراه قد تحوّل جوهرة بعد أن كان خرزة ، وصار أعجب شيء بعد أن لم يكن شيئاً . وإذا عرفت ذلك فإنّ العقلاء إلى هذا قصدوا حين قالوا : إنّه يصحّ ان يُعبَّر عن المعنى الواحد بلفظين ، ثمّ يكون أحدهما فصيحاً والآخر غير فصيح ، كأنّهم قالوا : إنّه يصعب أن تكون هاهنا عبارتان أصل المعنى فيهما واحد ، ثم يكون لإحداهما في تحسين ذلك المعنى وتزيينه ، وإحداث خصوصيّة فيه ، تأثير لا يكون للأخرى " [2] .

---

1 – عبد القاهر الجرجانيّ ، دلائل الإعجاز ، 258 .
2 – السابق ، 423 .

وكتابا عبد القاهر الجرجاني ؛ (دلائل الاعجاز) و(أسرار البلاغة) خير ما يمثل عناية البلاغيين بالسياق اللفظي (النظم) وأهميته في تحديد قيمة الكلمة ، وبيان تفاوت البلغاء في إنشائهم حسب مقدراتهم ، وتوفيقهم في إحكام النظم ، واستعمال وسائله في الدلالة على المعاني [1] .

تلك أهم إشارات الإمام عبد القاهر الجرجاني في مسألة السياق النفسيّ العاطفيّ ، وأثره في أبواب المعنى المختلفة .

خاتمة التطواف :

* تمثّلت جهود البلاغيين قبل عبد القاهر الجرجاني في معالجة مفهوم السياق في بحثهم للمفهوم على أنّه المقام / الحال / مقتضى الحال ، وبيّنوا أهميته عند إنشاء النصّ ، وعند الخطاب للمتلقي ، وحدّد لذلك بعض الضوابط العامة التي لم تكن تجنح إلى التفصيل الدقيق ، بل إلى التعميم ، وبيان الأهمية .

* كما يمكن أن نجمل تحديدهم لعناصر المقام عندهم في ثلاثة أمور هي : (المخاطِب – والمخاطَب– والخطاب) . فهذه العناصر الثلاثة و ظروف كلّ واحد منها تتحكم في دلالة الخطاب ، و مدى مناسبته لفعل الخطاب والتلقي ، والمناسبة لعملية التواصل ذاتها .

* وضح اعتماد الإمام عبد القاهر الجرجانيّ بشكل جليّ على مفهوم السياق وتشكّلاته الدلالية في فهم المعنى ، أو معرفة مواطن الحسن والجمال في التعبيرات المختلفة ، حيث كان أوّل من وجدناه يوظف المصطلح صراحة (السياق) في نصوصه ، وبيّن أهميته القصوى في البنى التعبيرية .

* ظهر من جهود عبد القاهر التنبّه التام لأنواع السياق وتشكيلاته الدلالية ، وإن لم يكن ينصّ صراحة على النوع ، لكنّ التحليل يفيض بدلالات هذا

1 – ينظر : د. طاهر حمودة ، دراسة المعنى عند الأصوليين ، 224 .

النوع الموظّف في النصوص . فقد ذكر الإمام من خلال تحليلاته البلاغية أنواع السياق المختلفة ؛ (المقالي / اللغوي ، والمقاميّ ، والثقافي / الاجتماعيّ ، والنفسيّ / العاطفيّ) ، وما استلزمه هذا التحليل من بيان الفوائد والفرائد الجمالية في السياقات التعبيرية المختلفة .

مصادر البحث:

* القرآن الكريم .

1- د. أحمد محمد قدور

- مبادئ اللسانيات ، دار الفكر ، دمشق ، 1996 .

2- د. أحمد مختار عمر

- علم الدلالة ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط3 ، 2003 .

3- الأزهري ؛ أبو منصور محمد بن أحمد (ت 370 هـ) ؛

- تهذيب اللغة ، تحقيق : عبد السلام هارون ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، 1964 .

4- الباقلاني ؛ محمد بن الطيب (ت 403 هـ) ؛

- إعجاز القرآن ، تحقيق : السيد صقر ، دار المعارف ، القاهرة ، ط5 ، 1995 .

5- د. تامر سلوم

- نظرية اللغة والجمال في النقد العربي ، دار الحوار ، دمشق ، 1998 .

6- د. تمام حسان

- اللغة العربية ؛ معناها ومبناها ، مكتبة الثقافة ، الدار البيضاء ، 1995 .

7- الجاحظ ؛ أبو عثمان عمرو بن بحر (ت 255 هـ) ؛

- البيان والتبيين ، تحقيق : عبد السلام هارون ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 2003 .

8- الجرجاني ؛ علي بن عبد العزيز (ت 366 هـ) ؛

- الوساطة بين المتنبي وخصومه ، تحقيق : محمد أبو الفضل ، المكتبة العصرية ، بيروت ، 1995 .

9- ابن جني ؛ أبو الفتح عثمان بن حني (ت 392 هـ) ؛

- اللمع ، تحقيق : فائز فارس ، دار الفكر ، دمشق ، 1995 .

10- الحصري ، ابراهيم بن علي بن تميم الانصاري (ت 413 هـ) ؛

- زهر الآداب وثمر الألباب ، تحقيق : د. صلاح الهواري ، المكتبة العصرية ، بيروت ، 2001 .

11- د. حلمي خليل

- العربية و علم اللغة البنيوي ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 1995 .

12- د. ردة الله الطلحي

- دلالة السياق ، مطبعة جامعة أم القرى ، السعودية ، 2006 .

13- ابن رشيق القيرواني ؛ أبو علي الحسن بن رشيق (ت 456 هـ) ؛

- العمدة في نقد الشعر ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، بيروت ، 1981 .

14- الرماني ؛ علي بن عيسى (ت 384 هـ) :

- النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) ، تحقيق : محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام ، دار المعارف ، القاهرة ، ط2 ، 1989 .

15- د . رمضان عبد التواب :

- المدخل إلى علم اللغة ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط2 ، 1985 .

16- الزركشي ؛ بدر الدين محمد بن بهادر (ت 794 هـ) :

- البرهان في علوم القرآن ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار التراث ، القاهرة، 1975 .

17- الزمخشري ؛ محمود بن عمر (ت 538 هـ) :

- أساس البلاغة ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ، 2003 .

18- د. زيد عمر

- السياق القرآني وأثره في الكشف عن المعنى ، مجلة جامعة الملك سعود ، السعودية ، مج 15 ، ع 2 ، 2003 .

19- د. سالم عباس خدادة

- النقد والسياق ، مجلة العلوم الإنسانية ، جامعة البحرين ، ع 2 ، 1999 .

20- ابن سنان الخفاجي ؛ أبو محمد عبد الله بن محمد (ت 466 هـ) :

- سر الفصاحة ، تصحيح : عبد المتعال الصعيدي ، مكتبة صبيح ، القاهرة ، 1969 .

21- الإمام الشافعي (محمد بن إدريس 205 هـ) :

- الرسالة ، تحقيق : الشيخ أحمد شاكر ، دار القلم ، دمشق ، 2004 .

22- د. صاحب أبو جناح

- السياق في الفكر اللغوي عند العرب ، مجلة الأقلام ، العراق ، ع 403 ، سبتمبر 1992 .

23- د. طاهر حمودة

- دراسة المعنى عند الأصوليين ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، 1981 .

24- ابن طباطبا العلوي ؛ أبو القاسم أحمد بن محمد (ت 345 هـ) :

- عيار الشعر ، تحقيق : د. محمد زغلول سلام ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، 1984 .

25- د. عبد الرحمن بو درع

منهج السياق في فهم النص ، مكتبة الثقافة ، الدار البيضاء ، 2008 .

26- د. عبد الستار حسين زموط

- من سمات التراكيب ، مطبعة الحسين ، القاهرة ، 1992 .

27- د. عبد القادر عبد الجليل

- الأسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية ، دار صفاء ، الأردن ، 2002 .

28- عبد القاهر الجرجاني (471 هـ) :

- أسرار البلاغة ، تحقيق : محمود شاكر ، دار المدني ، القاهرة ، 1991 .

- دلائل الإعجاز ، تحقيق : محمود شاكر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 2002 .

29- د. عبد الواسع الحميري

- الخطاب والنص ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، بيروت ، 2008 .

30- أبو عبيدة ؛ معمر بن المثنى (ت 208 هـ) :

- مجاز القرآن ، تحقيق : محمد فؤاد سزكين ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط2 ، 1988 .

31- عز الدين بن عبد السلام (ت 660 هـ)

- الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز ، تحقيق : محمد إسماعيل ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1995 .

32- العسكري أبو هلال ؛ الحسن بن عبد الله (395 هـ) :

- الفروق اللغوية ، دار الأفاق الجديدة ، بيروت ، ط4 ، 1980 .

- كتاب الصناعتين ، تحقيق : محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل ، دار الجيل، بيروت ، 1988 .

33- د. عواطف كنوش

- الدلالة السياقية عند اللغويين ، دار السياب ، لندن ، 2007 .

34- ابن فارس ؛ أحمد بن فارس بن زكريا (ت 395 هـ) :

- مقاييس اللغة ، تحقيق : عبد السلام هارون ، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط4 ، 2003 .

35- فاطمة الشيدي

- المعنى خارج النص ؛ أثر السياق في تحديد دلالات الخطاب ، دار نينوى ، دمشق ، 2011 .

36- فايز الداية

- علم الدلالة العربي (النظرية والتطبيق) ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1988 .

37- د. فتحي فريد

- المدخل إلى دراسة البلاغة ، مكتبة النهضة ، القاهرة، 1978 .

38- د. فوزي عبد الرزاق

السياق ودلالته في توجيه المعنى ، دار الفكر ، دمشق ، 2001 .

39- ابن قتيبة ؛ أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت276 هـ) :

- أدب الكاتب ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار التراث ، القاهرة ، 1988 .

- تأويل مشكل القرآن ، تحقيق : السيد صقر ، مكتبة التراث ، القاهرة ، 1989 .

- الشعر والشعراء ، تحقيق : أحمد شاكر ، دار الحديث ، القاهرة ، ط2 ، 1998 .

40- قدامة بن جعفر (ت 237 هـ) :

- نقد الشعر ، تحقيق : كمال مصطفى ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط3 ، 1978 .

41- القزويني ؛ محمد بن عبد الرحمن (ت 739 هـ) :

- الإيضاح في علوم البلاغة ، تحقيق : د. عبد الحميد هنداوي ، مؤسسة المختار ، القاهرة ، 1998 .

42- المبرّد ؛ أبو العباس محمد بن يزيد (ت 285 هـ) :

- الكامل في اللغة والأدب ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، بيروت ، 1997 .

43- د. محمد حماسة عبد اللطيف

- النحو والدلالة ، دار الشروق ، القاهرة ، 2000 .

44- د. محمد الحناش :

- البنيوية في اللسانيات ، دار الرشيد ، الدار البيضاء ، 1980 .

45- محمد رشيد رضا (1354هـ) :

- تفسير المنار ، دار المعرفة ، بيروت ، 2000 .

46- محمد عبد الله سيف :

- البحث الدلالي عند الشوكاني في كتابه (إرشاد الفحول) ، مكتبة المعارف ، بيروت ، 2005.

47- د. محمد عبد المطلب

- البلاغة والأسلوبية ، دار لونجمان للطباعة ، القاهرة ، 1994 .

48- د. محمد أبو الفرج

- المعاجم اللغوية في ضوء دراسات علم اللغة الحديث ، دار النهضة ، القاهرة ، 1985 .

49- د. محمود السعران

- علم اللغة ؛ مقدمة للقارئ العربي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، 2006 .

50- المرزوقي ؛ أحمد بن محمد بن الحسن (ت 421 هـ)

- شرح ديوان الحماسة ، تحقيق : غريد الشيخ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2003 .

51- د. مصطفى ناصف

- نظرية المعنى في النقد العربي ، دار الأندلس ، بيروت ، 1990 .

52 - ابن منظور ؛ جمال الدين محمد بن مكرم (ت 711 هـ) :

- لسان العرب ، دار الفكر ، دمشق ، 1988 .

53- ميشال زكريا

الألسنية ؛ المبادئ و الأعلام ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، بيروت ، 1993 .

54- نجم الدين الزنكي :

- نظرية السياق : دراسة أصولية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2006 .

55- د. هادي نهر

- علم الدلالة التطبيقي وأصوله في التراث العربي ، دار الأمل للنشر ، الأردن ، 2007 .

المراجع المترجمة :

1- جوزيف فندريس :

- اللغة ، تعريب : عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، 1988 .

2- ستيفن أولمان :

- دور الكلمة في اللغة ، ترجمة : د. كمال بشر ، مكتبة الشباب ، القاهرة ، 1988 .

3- فرانك بالمر:

- علم الدلالة ، ترجمة : د. صبري السيد ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 1995 .

4- فريناند دي سوسير :

- علم اللغة العام ، ترجمة : د. أحمد نعيم الكراعين ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 2000 .

5- ماريو باي

- لغات البشر ، ترجمة : د. صلاح العربي ، منشورات الجامعة الأمريكية ، القاهرة ، 1970 .

6- يوجين أ. نيدا :

- نحو علم الترجمة ، ترجمة : ماجد النجار ، مطبعة العاني ، بغداد ، 1976 .

المراجع الأجنبية :

1- A.J Grimas , J. Courtes : Semiotique Raisonne de la langue , hachtte universite ; paris , 1965 .

2 - Christian Baylon, et Paul Fabre, la sémantique, Édition. Paris Nathan impr. 1979.

3 - Firth, papers in linguistic, oxford university, press new york, toronto 1957.

4- Jean dubois , Dictionnaire de Linguistique , librairie larrousse , 1973 .

5 - John lyons, élément de sémantique , Larousse paris , 1978